محمد حبيدة

أوروبا
في القرن التاسع عشر
نابوليون

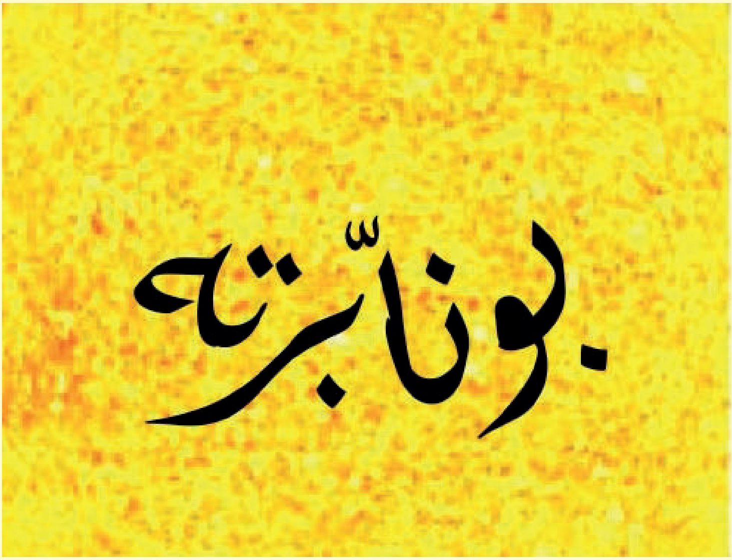

دار أبي رقراق
للطباعة والنشر

أوروبا

في القرن التاسع عشر

نابوليون

Université Ibn Tofail جامعة ابن طفيل
Ibn Tofail University
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-القنيطرة

محمد حبيدة

أوروبا
في القرن التاسع عشر
نابليون

دروس ومحاضرات
2021-2020

عنـوان الكـتـاب : أوروبا في القرن التاسع عشر: نابوليون
الــمؤلـــف : محمد حبيدة
صورة الغــلاف : تصميم خاص
الإيداع القانـوني : 2021MO3392
ردمـــــــك: 978-9920-34-104-2
الطبـعــة الأولى : 2021م
الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

10 شارع العلويين رقم *3*، حسان - الرباط
الهاتف : *05 37 20 75 83* - الفاكس : *05 37 20 75 89*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة

هذا الكُتيِّب في الأصل دروسٌ عن «أوروبا في القرن التاسع عشر»

أُلقِيت عن بعد في سياق وباء كورونا بجامعة ابن طفيل

(إجازة التاريخ والحضارة)

برسم السنة الجامعية 2020-2021

إلى طَلَبتي الذين تفاعلوا مع ما قدَّمته من محاضرات عن تاريخ أوروبا طيلة خمسٍ وثلاثين سنة.

«شغَل نابوليون العالـمَ وهو حي، وامتلكه وهو ميت»

شاطوبريان (مذكرات ما وراء القبر)

المحتويات

1. مدخل: لماذا نابوليون؟ 13

2. نابوليون: ابن الثورة 25

3. نابوليون: من الهامش إلى المركز 33

4. حملة نابوليون على مصر: نارٌ ونورٌ 43

5. نابوليون على رأس أوروبا (1805-1815) 53

- الهزيمة الصغرى: الطَّرف الأَغَر 59
- نابوليون وهيجل وجها لوجه: احتلال ألمانيا 62
- القمة: إخضاع إسبانيا والنمسا وهولندا 70
- المأساة الرهيبة: الحملة على روسيا 75
- الهزيمة الكبرى: واتيرلو ومؤتمر فيينا 79

6. قانون نابوليون 87

7. من المركز إلى المنفى أو سنوات العزلة (1815-1821) 95

ملحق: نصوص

النص رقم 1: رسالة نابوليون إلى المصريين...107

النص رقم 2: رسالة هيجل إلى نيتهامر عن نابوليون...111

النص رقم 3: نابوليون والمجتمع الألماني...113

النص رقم 4: رسالة نابوليون إلى السلطان المولى سليمان...117

النص رقم 5: تولستُوي واصفاً نابوليون...121

النص رقم 6: شاطوبريان ناقداً نابوليون...125

النص رقم 7: فيكتور هوغو مادحاً نابوليون...127

النص رقم 8: نابوليون بونابَّرت وجورج واشنطن...131

النص رقم 9: نابوليون والمؤرخ...133

النص رقم 10: نابوليون العاشق: رسالة إلى زوجته جوزيفين...135

مراجع...137

1
مدخل
لماذا نابوليون؟

القرن التاسع عشر هو قرن الحداثة الكبرى، بالقياس إلى الحداثة الكلاسيكية (عصر الأنوار)، والحداثة المبكرة (عصر النهضة). هو القرن الذي تجسدت فيه التحولات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية التي راكمها الأوروبيون على مدى قرون. أولا، الحرية التي انطلقت من حرية العقيدة مع الإصلاح الديني أو ما يسمى بالبروتستانتية في القرن السادس عشر، وامتدت فيما بعد لتشمل حرية التعبير السياسي، مما أدى في نهاية المطاف إلى تغيرات سياسية كبيرة في شكل إصلاحات (الثورة الجليلة في إنجلترا عام 1689) أو ثورات حقيقية (الثورة الفرنسية عام 1789)، مكَّنت من إقرار المساواة المدنية وتحول الرعايا إلى مواطنين. ثانيا، العقل الذي صار في عصر الأنوار مقياسا رئيسيا في ميادين الآداب والفنون، وفي النقاش الفكري مع الكنيسة، إذ أخذت أمور الفكر والثقافة تنقلب شيئا فشيئا بفضل تمدد التفكير العقلاني وانكماش التفكير الديني. ثالثا، التقنية أو ما يعرف بالثورة الصناعية، حيث مكَّنت التقنيات

والمستحدثات، التي تجسدت في مختلف الآلات التي صارت تنتجها المعامل والمصانع بكبريات المدن الأوروبية، من تغيير نمط عيش المجتمع وسلوكياته رأسا على عقب.

عاش الأوروبيون هذه التحولات بدينامية كبيرة، حيث كانوا على وعيٍ بيِّنٍ بالدخول في حقبة جديدة مفتوحة على المستقبل، ومتطلِّعة إلى أفق أرحب: العولمة. ففي القرن التاسع عشر هذا تعولمت أفكار الأنوار ومستحدثات الثورة الصناعية. ما كان يحصل في أوروبا من تطورات كان يجد صدى في بقاع أخرى من العالم، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية (التحولات الصناعية والسكك الحديدية) وفي اليابان (التحديث بفضل ثورة الميجي). ومع موجة الاستعمار، انتفخت هذه العولمة. ففي هذا القرن استطاع الأوروبيون، وفي مقدمتهم البريطانيون والفرنسيون، بسط سيطرتهم على العالم (آسيا وإفريقيا) وتصدير ليس فقط تقنياتهم، بل أيضا أفكارهم وعلومهم وآدابهم وطرق عيشهم.

ويمكن فهم القرن التاسع عشر انطلاقا من مداخل متعددة:

مدخل اجتماعي يرتبط بعدد من التطورات التي حصلت في أوروبا، منها بالخصوص التمايز الاجتماعي الطبقي، والثورات. من جهة، أدت الثورة الصناعية وما رافقها من تكاثرٍ في المصانع، واستغلالٍ كثيف لمناجم الفحم الحجري، إلى نشأة طبقة اجتماعية عُمالية (البروليتاريا) عاشت ظروفا معيشية بائسة بفعل ما مارسته

عليها طبقة البورجوازيين الرأسماليين من استغلال فاحش. ومن جهة أخرى، وبالعلاقة مع هذا المعطى، انتشرت الأفكار والممارسات السياسية ذات النَّفَس النقابي والثوري، فاندلعت ثوراتٌ في مختلف بلدان أوروبا تعرف لدى المؤرخين بِ «ربيع الشعوب» الذي انطلق من ثورة فبراير 1848 بباريس، حيث تفجرت حركاتٌ اجتماعية، قومية أو دستورية أو مواطناتية، قادها أو أطَّرها عدد من السياسيين والمناضلين في مدن باليرمو، وبرلين، وفيينا، وبراغ، وبودابيست، من أمثال كارل ماركس، وجيوسيبي غاريبالدي، وجورجي بليخانوف، وكارل كاوتسكي، ولويس دوبوتير.

مدخل صناعي، حيث انتشرت مظاهر الثورة الصناعية التي كانت قد رأت النور أول الأمر في إنجلترا في القرن الثامن عشر. وأهم ما ميَّز هذا التحول الصناعي امتداد السكة الحديدية، وتكاثر المدن السوداء، أو ما يعرف بِـ «الكوكتاونز» حيث سادت الآلات والمداخن العالية التي شغَّلت مصانع النسيج والحديد والصلب ومناجم الفحم الحجري، إيذانا بنظام رأسمالي قائم على الاستغلال وتلويث البيئة. وقد صاحب ذلك تطورٌ في وسائل المواصلات، خاصة القطارات والباخرات، التي صارت أداة رئيسية من أدوات الحداثة ورمزا من رموز «تفوق الغرب» على حساب باقي العالم. من جهة، مكنت المصانع من إكثار الإنتاج، ومن جهة أخرى أتاحت وسائل النقل تسويق هذا الإنتاج، وذلك ليس فقط على الصعيد

الداخلي، بل الخارجي أيضا، مما يفسر حركة الاستعمار في القرن التاسع عشر، حيث كانت المصانع المذكورة بحاجة إلى أسواق خارجية لتسويق الإنتاج، وإلى مواد أولية لتزويد الآلات وتمكينها من الزيادة في الإنتاج. وبطبيعة الحال، يبقى التداخل بين هذا التحوُّل الصناعي وذلك التغيُّر الاجتماعي سمة بارزة من سمات التطور الكبير الذي عرفه القرن التاسع عشر، كون أن الناس تبدَّل نمط عيشهم، مثلما تبدَّلت أفكارهم وعقلياتهم.

مدخل جيو-سياسي يسلط الضوء على المراحل الرئيسية التي ميزت هذا القرن:

مرحلة أولى هيمنت فيها فرنسا على الساحة الأوروبية، في مطلع القرن التاسع عشر، مع نابوليون الذي خاض حروبا مدمِّرة، عرفت في تاريخ أوروبا بِ «الحروب النابوليونية» استطاع خلالها الهيمنةَ على إيطاليا والنمسا وألمانيا، والوصول حتى إلى روسيا، وفَرْضَ حصارٍ اقتصادي على بريطانيا. وهذه المرحلة انتهت بهزيمته في معركة واتيرلو (1815)، وانعقاد مؤتمر فيينا في نفس السنة، والذي فتح الباب على مصراعيه لواقع سياسي جديد داخل أوروبا، تميز بهيمنة بريطانيا هيمنةً بيِّنة.

مرحلة ثانية هيمنت فيها بريطانيا عقب مؤتمر فيينا (1815). هذه المرحلة هي التي توافق اعتلاء الملكة فيكتوريا عرش بريطانيا ما بين 1837 و1901. في هذه المرحلة، صارت بريطانيا بالتعبير الشهير

«الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس»، حيث تحكمت، بفضل قوتها الملاحية والعسكرية والصناعية والتجارية، في أطراف شاسعة من العالم، من الصين والهند إلى كندا، مرورا بمستعمرات إفريقيا.

مرحلة ثالثة صعدت فيها ألمانيا كقوة يحسب لها ألف حساب. حدث ذلك مع الوحدة السياسية (1871) التي لعب فيها بيسمارك دورا كبيرا، إذ كان من وراء التحول من «بْروسيا إلى ألمانيا». في هذه المرحلة استطاعت ألمانيا أن تطوِّر بنياتها الصناعية على نحو كبير باستغلال مناجم الفحم الحجري، والتركيز على صناعة الحديد والصلب التي ارتبطت بمصانع كرُوبْ التي جسدت الثورة الصناعية الألمانية حيث امتدت السكة الحديدية عبر أرجاء البلاد، ونمت صناعة الأسلحة التي خاضت بها ألمانيا حروبها ضد فرنسا وبريطانيا.

في واقع الأمر، يبدو تاريخ أوروبا، من الوجهة الماكرو-تاريخية، والجيو-سياسية تحديدا، ليس فقط في القرن التاسع عشر، بل منذ قرون خلت، وكأنه تاريخ الصراع بين منظور «الهيمنة» الذي جسدته أمم القارة، مثل فرنسا وإسبانيا وألمانيا، مع اختلاف السياقات بطبيعة الحال، ومنظور «التوازن» الذي اتبعته إنجلترا. هذا ما يَظهر في مطلع القرن المذكور مع الصراع الفرنسي البريطاني. ففي الوقت الذي كانت تسعى فيه السياسة الفرنسية، منذ لويس الرابع عشر إلى الهيمنة، كانت بريطانيا تشيِّد سياستها الاستراتيجية

على التوازن. كان البريطانيون، من موقعهم الجغرافي المنفصل عن باقي أوروبا ينظرون إلى القارة، «الكانْتِينانْت»، بمنظورهم «البْرِيتِيش» الرامي إلى بقاء هذه القارة متعددةً لا موحَّدةً، باعتبارها أسواق متنوعة لاقتصادها الليبرالي المؤسَّس على حرية التجارة. وهي السياسة التي ماتزال متَّبَعة إلى اليوم في ظل ما عُرِف في السنين الأخيرة بسياسة «البرِيكْسيت». ولذلك، لم يعمل نابوليون في محصلة كل ما جرى من أحداث إلى غاية 1815 إلا على تمديد هذه السياسة القارية، سياسة «الهيمنة»، التي كان قد اتبعها ملك فرنسا لويس الرابع عشر (ت 1715)، ومن قبله ملك إسبانيا فيليبِّي الثاني (ت 1598)، وهيتلر فيما بعد (ت 1945)، والتي لم تنجح في نهاية المطاف.

لماذا إذن نابوليون، وليس فيكتوريا أو بيسمارك؟

ارتأينا اختيار المدخل الجيو-سياسي موضوعا لهذا الدرس، والتركيز بالخصوص على شخص نابوليون، لسببٍ ذي صلة بسياق القرن التاسع عشر نفسه. لا أحد يشك في الدور الهائل الذي لعبه هذا الرجل في تغيير وجه فرنسا، وفي فعفعة يقين المونارشيات والإمبراطوريات الأوروبية العريقة. لكن ما يثير الاهتمام في تجربة نابوليون، بالمقارنة مع فيكتوريا أو بيسمارك، هو هذا المسار الفريد بالقياس إلى سياق المرحلة المعنية، والذي جعل هذا «الكورسيكي الصغير»، الذي لم يكن يتقن اللغة الفرنسية في صغره، يرتقي في ظرف وجيز من كابران إلى جنرال، وينتقل من الهامش إلى المركز، من

مدينة أجاكسيو في جزيرة كورسيكا بالجنوب الفرنسي إلى العاصمة باريس وإلى كبريات العواصم الأوروبية، ليعتلي عرش أوروبا في «منظر فوق المعتاد» كما قال فيكتور هوغو. لكن اللافت للنظر في هذا الموضوع، هو أن حداثة القرن التاسع عشر، خاصة ما ارتبط منها بمبدأ المساواة المدنية، العزيز على فلاسفة الأنوار، والذي كرسته ثورة 1789 الفرنسية، هي التي منحت هذه الإمكانية، وبواسطة المدرسة، كون أن المرء صار بمقدوره أن تكون له قيمة بصرف النظر عن انتمائه الجغرافي أو أصله الاجتماعي. وهذه الإمكانية هي التي اتسعت مع مرور الزمن طيلة القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين، بفضل عمليات إبطال الامتيازات الإقطاعية والعبودية والميز العنصري، حيث يلاحظ المتتبع لمسارات الأشخاص والشخصيات كيف كانت البنيات الحديثة، من مدرسةٍ ومسرح وسينما ورياضة، من وراء بروز أسماء تنتمي إلى الهامش الجغرافي وإلى الأسفل الاجتماعي، حيث صارت ذات شأن وتأثير وشهرة، مثل نيلسون مانديلا، ومارتن لوثر كينغ، ومارادونا، وجيرار دوبارديو، ومارلين مونرو، وغيرهم. كانت إحدى السيِّدات الفرنسيات في القرن التاسع عشر، ممن كنَّ يمتلكن صالونا أدبيا بباريس، قد عبَّرت عن هذا التحول تعبيرا بليغا: «لولا الثورة الفرنسية، لكنتُ بائعة فواكه في الأسواق» (بيار براندا: 2021). وبطبيعة الحال، لا يمكن للباحث أو الكاتب أو الفنان، وهو يتعقب مسارات من هذا الطراز، ألّا تمسّه شظاياها وألّا يحس بكنهها، خاصة إذا كان ينتمي

هو نفسه، في الأصل، إلى هذا الهامش أو إلى هذا الأسفل. هذا ما دفعني للاهتمام بمسار نابوليون وأثره السياسي والقانوني، كما سنرى في فصول هذا الدرس.

وأخيرا، كلمة بخصوص التحقيب.

يتعامل عدد من المؤرخين مع القرن التاسع عشر بمفهوم المدة الطويلة. ومعنى ذلك أن هذا القرن يجد جذوره في نهاية القرن الثامن عشر، ويمتد حتى مطلع القرن العشرين، من 1789 إلى 1914. وفي واقع الأمر لكل سنة من السنتين المذكورتين ما يبررهما. تشير سنة 1789 إلى اندلاع الثورة الفرنسية وما ترتب عنها من أحداث كان لها كبير الأثر على القارة الأوروبية في القرن التاسع عشر. ويتجلى ذلك في ملابسات مجريات الأمور التي مكنت من صعود نابوليون إلى سدة الحكم، وسعيه إلى الهيمنة على أوروبا، وذلك في سياق الصراع مع بريطانيا في بداية القرن المذكور. أما سنة 1914 فتشير إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى أو ما يسمى أيضا بِ «الحرب الكبرى». وبطبيعة الحال، لا يمكن فهم اندلاع هذه الحرب من دون الرجوع إلى نهاية القرن التاسع عشر حيث صعد نجم ألمانيا صناعيا وعسكريا، لما حققت وحدتها السياسية، وهزمت فرنسا في حرب 1870، ودخلت في التنافس الإمبريالي مع الدولتين الاستعماريتين المهيمنتين على الساحة، أي فرنسا وبريطانيا. بل إن بعض المؤرخين

يذهبون إلى القول بامتداد القرن التاسع عشر حتى قيام الثورة الروسية عام 1917 التي دشنت لتغيير وتأثير كبيرين استمرا طيلة القرن العشرين ليس فقط على مستوى أوروبا، بل العالم أيضا.

ويرى البعض الآخر أن القرن التاسع عشر لم يبدأ إلا مع هزيمة نابوليون في معركة واتيرلو وانعقاد مؤتمر فيينا الذي أسس لنظام أوروبي جديد تحكمت فيه بريطانيا تحكما بيِّنا. وطرحٌ مثل هذا يجعل بعض المؤرخين يرون في الأحداث والوقائع المرتبطة بنابوليون وحروبه على مختلف الجبهات الأوروبية امتدادا للقرن الثامن عشر، وما شهده في متمِّه من ثورةٍ حملت ملابساتها وتفاعلاتها شخصَ نابوليون إلى واجهة الأحداث في فرنسا وأوروبا بصورة عامة. ثم إن المتنبِّهَ لهذا التداخل بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لن تفوته إشكالية أخرى مرتبطة بنابوليون دائما: متى يبدأ عهد الثورة ومتى ينتهي العهد البائد؟ لأن نابوليون جسد هذا التداخل. فهو من جهة، حمل الثورة ووضع أسسها على محك الواقع، لاسيما ما تعلق بمبدأ المساواة أمام القانون، كما يتضح من مدوَّنته المدنية، ومن جهة أخرى، ظل مرتبطا بعهد ما قبل 1789 لما اتخذ النظام الإمبراطوري شكلا للحكم (ابتداءً من عام 1804)، وتصاهر مع ملك النمسا، متزوِّجا للمرة الثانية من ابنته ماري لويز سنة 1810.

يبقى التحقيب في المحصلة عملية معرفية ومنهجية أكثر منها عملية ميكانيكية، لأنها من صنع المؤرخ أولا وقبل كل شيء. هذا ما

أكد عليه بعض المؤرخين. جاك لوغوف مثلا، يرى في عصر النهضة حقبة فرعية من عصر وسيط طويل، كون أن عصر الأنوار، الذي انتشرت فيه أفكار الحداثة والتقدم، هو الذي وضع حدا للقرون الوسطى وفتح الباب في وجه الأزمنة الحديثة. ولذلك، التحقيبُ عمليةٌ قابلة للمراجعة باستمرار وفق تقدم المعرفة، وتقدم واقع البشرية أيضا. ما يظهر حديثا اليوم بالنسبة إلينا، سيبدو عتيقا في أعين الأجيال القادمة، من دون شك، بالقياس إلى ما سيحدث من متغيرات في التقنيات والعقليات. وباستحضار نابوليون، موضوع هذا الدرس، لابد من التأكيد على أن جيشه، الذي بدا حديثا في إبانه، بالنظر إلى التنظيم والانضباط واستخدام البنادق والمدافع، كان قد اعتمد على المشاة، وأن هؤلاء، خلال الحملة على روسيا عام 1812، قطعوا المسافة بين باريس وموسكو مشيا على الأقدام، تماما كما حصل في العصر القديم لما قاد الإسكندر الأكبر جيشه في حملته الآسيوية التي أوصلته حتى منطقة البنجاب شمال الهند.

وفي الختام لابد من توضيحٍ أساسيٍّ: هذا الدرس ليس بيوغرافيةً عن نابوليون، لا في شكلها التقليدي، ولا حتى في تصورها الجديد، على النحو الذي اقترحه فرانسوا دُوسْ في «الرِّهان البيوغرافي» (2011). وهذا الدرس أيضا ليس سردا حدثيا لما وقع زمن نابوليون على طريقة رانكه. ربما يكون سرداً على الطريقة التي تصورها بول فينْ الذي قال بِ «القصة الحقيقية» في مؤلَّفه «كيف

يُكتب التاريخ» (1971). وربما يكون «عودة إلى الحدث»، كون أن هذا الأخير قادر على فعفعة السيكولوجيات الجماعية، كما عبَّر عن ذلك عددٌ من الباحثين الأوروبيِّين المجدِّدين (إسطوغرافيات: 2010). يبقى أن هذا الدرس درسٌ في التاريخ. التاريخ الذي يأخذ الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين «مأخذَ الجد» كما قال بيرنار لوبوتي (1995). التاريخ الذي ينطلق من الأسفل ليكشف عن الأعلى. التاريخ الذي يعدِّد زوايا النظر، ومصادر الخبر، ومنها الأعمال الأدبية التي تمكِّن، وربما أفضل من الأعمال الأكاديمية، من تمثل الحالات البشرية وفهمِها. التاريخ الذي يجعل الإنسان في صلب الرؤية. التاريخ الذي لا يخشى آفاق التفسير والتأويل. وبكل بساطة: التاريخ.

2
نابوليون ابن الثورة

«أنا ابن الثورة»! هكذا كان يحلو لنابوليون أن يقول. لقد جمع مجرى التاريخ بين الاثنين: الثورة، باعتبارها حدثا فكريا واجتماعيا وسياسيا، ونابوليون بوصفه فاعلا عسكريا وسياسيا. الثورة الفرنسية هي التي حملت، بملابساتها، نابوليون إلى واجهة المشهد السياسي، ونابوليون هو الذي أنقذ الثورة في وجه أنصار النظام المونارشي داخليا، كما في وجه الأمم الأوروبية المونارشية خارجيا. بالنسبة لعموم الفرنسيين، ولعدد من الباحثين، يبقى نابوليون هو ذلك المحرِّك الذي مكَّن من استمرارية روح الثورة في نهاية القرن الثامن عشر عقب مرحلة الفتن والقلاقل التي أعقبت ثورة 1789، وطيلة القرن التاسع عشر، مع استحضار شخصيته خلال الموجات الثورية المتلاحقة التي فعفعت النظام السياسي في فرنسا (1830 وثورة الثلاثة أيام المجيدة، 1848 وثورة فبراير، 1871 وكمونة باريس أو الثورة الفرنسية الرابعة).

لما اندلعت الثورة الفرنسية، كان نابوليون لم يتجاوز بعدُ العشرين سنة، لكنه كان قد انخرط في مجراها، ودافع عن مبادئها

وتوجهاتها. أولا، في جزيرة كورسيكا، حيث دافع عن الثورة وناصر الثوريين في وجه أنصار النظام المونارشي (1792)، ثم في مدينة تولون (1793)، حيث واجهَ البريطانيين الذين انتصبوا ضد الثورة منذ البداية، ولفتَ انتباه أخ زعيم الثورة ماكسيمليان روبيسبيار، أوغستان الذي كتب لأخيه رسالة يقول فيها: «هذا الكورسيكي متميِّزٌ على نحو فائق»، مما قرَّبه من المجلس الثوري بالعاصمة. وأخيرا، قدرته على إخماد فتنة باريس (1795).

هذا على مستوى الميدان، خلال السنوات الأولى من تجربة الرجل. وحتى فيما بعد، لما صار سيد البلاد الأول، واستبد بالسلطة بصفته قنصلا ثم إمبراطورا، كما سنرى، فإن روح الثورة لم تفارقه أبدا، وذلك بالقياس إلى السياق الثوري الذي ميز فرنسا وهي تصارع الدول الأوروبية المجاورة التي لم تستسغ سقوط سلالة البوربون. كان الأديب والسياسي ألبير لابونريه، الذي عاش أجواء ما بعد نابوليون، قد كتب بهذا الشأن: «كان نابوليون من دون شك رجلا مستبدا، مثلما كان عمالقة الثورة الراديكاليون الذين أنقذوا فرنسا الثورية. كان هذا الاستبداد مجديا وبعناية، إذ بدونه كنّا سنكون ربما بْروسيِّين أو نمساويِّين أو روسيِّين» (سودير هزاريسينغ: 2010).

لكن التغيُّر الذي طرأ في ذهن الرجل وانعكس على سلوكه الميداني مرتبط بمجريات الأحداث، بطبيعة الحال، وأيضا بنوع من جنون العظمة الذي غلب على نفسيته وحاد به عن مبدأ الحرية

الذي دافع عنه الثوريون، مفكرون وفاعلون. في مذكرات شارلوت روبيسبيار، أخت ماكسيمليان وأوغستان، التي اعتنى بنشرها ألبير لابونريه، نقرأ شهادة غايةً في الأهمية: «كان بونابَّرت يُكِنُّ تقديرا كبيرا لشقيقيَّ، وخاصة لماكسيمليان. كان معجبا بمواهبه وطاقته وصفاء وطنيته ونواياه. ولذلك، كان بونابَّرت جمهوريا صادقا، وقد أقول بأنه كان جمهوريا راديكاليا. على الأقل، هذا هو الانطباع الذي تكوَّن لدي من خلال الطريقة التي كان يرى بها الأمور، في الوقت الذي كنتُ فيه بمدينة نيسْ. انتصاراته فيما بعد هي التي لعبت برأسه وجعلته يطمح إلى السيطرة على باقي المواطنين. لكن، لما كان جنرالا للمدفعية عندما قاد الجيش في الحملة على إيطاليا (1796-1797) كان مناصِرا لحرية واسعة» (مذكرات شارلوت روبيسبيار: 1835).

كان السياق محدِّدا فيما آلت إليه أمور الثورة. على هذا المستوى، يمكن العودة إلى سنوات القلاقل التي أعقبت 1789، حيث كان بعض الثوريين يبحثون عن رجل عسكري يتمتع بالهيبة اللازمة لاستتباب الأمن. ومنهم الوجه الفاعل والمفكر، إيمانويل جوزيف سِياس، صاحب الكتاب الشهير «ما هي الطبقة الثالثة؟» المنشور عام 1789، والذي يعتبر بمثابة البيان السياسي الرئيسي للثورة الفرنسية. فقد كان سِياس هو المدبِّر الرئيسي لما يُعرف بانقلاب 18 برومير (9 نونبر 1799) الذي نفَّذه نابوليون إيذانا بنهاية عهد

حكومة الديريكتوار المنبثقة عن الثورة[1]، وبداية عهد «القنصلية» (1799-1804) الذي دشن لمرحلة جديدة ضيَّقت على الحريات.

وفيما يتصل بالسياسة العامة، فإن توجه نابوليون ظل مرتبطا أيضا بالثورة، وإن كان قد حاد عن مبدأ الحرية. ذلك ما تؤكده الإصلاحات الكبرى التي باشرها لما صار سيد البلاد بدون منازع. ويتعلق الأمر بالمدونة المدنيَّة التي تأسست على مبدأ المساواة بين المواطنين، الذي بلوره مفكرو عصر الأنوار، وصاغه الثوار في إعلان حقوق الإنسان. صحيح أن نابوليون ضيق على الحريات التي نظَّر لها المفكرون وناضل من أجلها الثوريون، غير أن ظروف الفوضى التي أعقبت الثورة، هي التي دفعته إلى هذا التضييق، لكن مع حفظ مبدأ المساواة المدنية. فقد قال في مذكراته أن الفرنسيين في مثل هذه الظروف «كانوا قد تشبثوا بالمساواة أكثر مما تشبثوا بالحرية» (مذكرات سانْت هِيلانة: 1823).

وما يثير الانتباه، في التجربة المعروضة هنا، هو صغر سن نابوليون، لما تحمل هذه المسؤوليات الجسيمة (جنرال في سن السادسة والعشرين، وإمبراطور وعمره خمس وثلاثون سنة). وفي واقع الأمر، كانت فرنسا، في ذلك الإبان، بلدا فتياً من الناحية الديموغرافية، ومحمولاً على جناح الشباب. فالثورة الفرنسية

(1) Directoire: إدارة مدنية اتُخِذت فيها القرارات الحكومية بشكل جماعي خلال المرحلة التي أعقبت الثورة الفرنسية (26 أكتوبر 1795-9 نونبر 1799).

في أساسها ثورة صنعها ثوريون شباب وُلدوا في سنوات 1750، وبالتالي كان سنُّهم، عند اندلاع الثورة، يتراوح بين الثلاثين والخمسة وثلاثين عاماً: ماكسيمليان روبيسبيار، وجاك بيار بريسو، وجورج دانتون، وهونُوري ميرابو، وجاك روني هيبير، وأنطوان فوكيه، وجورج كوتون، وبيار فيرنيو، وكاميل ديمولان، وأنطوان برناف الذي لم يكن قد أكمل بعدُ ثماني وعشرين سنة في يوليوز 1789، هذا الشاب الملقب بالنَّمِر الذي لعب دورا كبيرا في أشغال البرلمان. كل هؤلاء أسهموا إسهاما فعالا في إشعال فتيل الثورة وفي تأسيس «جمعية أصدقاء الدستور» التي عُرفت فيما بعد باسم «نادي اليعقوبيِّين»[1].

كانت حنة آرنت، التي درَست الثورات الحديثة في كتابها «في الثورة» (1963)، قد ربطت «مفهوم الثورة الحديث» بتجدُّد مجرى التاريخ، حيث يبدأ تاريخٌ جديد لم يسبق له مثيل. وتجدُّد المجرى هذا هو الذي جسده هؤلاء الثوريون الشباب المتحررون من سحر الماضي وجاذبيته، والذين نظروا إلى الأمام وليس إلى الوراء، حيث كانت الرغبة في التحول لا رجعة فيها. صحيح أن الثورة الفرنسية شهدت فصولا من التذبذب، والأخذ والرد، والشك في مآلات

(1) كلمة «يعقوبية» (Jacobinisme) ترتبط في الأصل بدير اليعقوبيِّين في باريس الذي حوَّله الثوريون إلى مقر للنقاش في شؤون الثورة وتدبير مجرياتها بين عامي 1789 و1794. وقد مر التيار اليعقوبي من مراحل متعددة، يسميها المؤرخون بـ «اليعقوبية المحافظة»، و«اليعقوبية المختلطة» التي هيمن عليها الجيرونديون بقيادة جاك بيار بريسو، و«يعقوبية 1793».

الحاضر بسبب ما أحدثته من عنف وعنف مضاد، لكن التغيير انتصر في نهاية المطاف، وخلق إحساسا بحياة جديدة تغمرها المساواة المدنية أولا وقبل كل شيء: مساواة جميع المواطنين أمام القانون، هذا المحدِّد التشريعي الجديد الذي قطعَ مع الامتيازات الإقطاعية التي سادت في فرنسا منذ مطلع القرون الوسطى، والذي شكَّلَ بحق مؤشرا رئيسيا من مؤشرات الحداثة وولوج الأزمنة الحديثة. فعلى خلاف الحركات الاجتماعية السابقة، في عصر النهضة بالخصوص، التي لم تستطع بلورة مفهوم المساواة من الناحية السياسية والقانونية، فإن البورجوازية تمكنت، في القرن الثامن عشر بواسطة فلاسفة الأنوار، من ابتكار هذا المفهوم وتأصيله مدنيّاً، كما يتضح في أعمال جون جاك روسُّو، والذي احتل الفقرة الأولى من إعلان حقوق الإنسان (26 غشت 1789): «يولد الناس أحرارا وسواسية في الحقوق ويظلون كذلك». وهذه الفقرة هي التي وضعها نابوليون موضع تطبيق لما أقرَّ المدونة المدنيَّة عام 1804، وأشار إليها في رسالته إلى المصريين عام 1798: «إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط» (عبد الرحمن الجبرتي: 1822).

ثم إنه لا ثورة حقيقية من دون زعيم. وقضيَّة الزعيم محورية في هذا الصدد، لأن معظم الثورات أفرزت شخصيات أثرت تأثيرا بالغا في مجرى الأمور. وقد ارتبط هذا التأثير باللغة، بالخطاب،

بالتواصل، بدرجة شد انتباه الناس وتهييجهم والدفع بهم إلى ساحة الاحتجاج والعصيان أو إلى ساحة الوغى للقتال من أجل الوطن. يقول فرانسوا فوريه في كتابه «التفكير في الثورة الفرنسية»: «إذا كانت الثورة لغة، فإنها كانت تضع الذين يُحسِنون الكلام في مقدمة المشهد» (1978) ، أي الذين يتقنون التواصل، على غرار نابوليون الذي كان بارعا فيما يُعرف اليوم بالتواصل التأثيري.

3

نابوليون
من الهامش إلى المركز

يعد نابوليون (1769-1821) من الشخصيات الكبرى التي أثرت في مجرى تاريخ القرن التاسع عشر، باعتباره فاعلا سياسيا كبيرا. في الواقع، لا يتعلق الأمر بتاريخ سياسي تقليدي يضع في الواجهة الأشخاص وتفاصيل الأحداث، ولا بتاريخ بنيوي يتجاهل دور الفرد في النسيج التاريخي. في دراسة هامة تحت عنوان «هل يأخذ التاريخُ الفاعلين مأخذَ الجد؟» صادرة عام 1995، كان المؤرخ الفرنسي بيرنار لوبوتي قد ناقش مجموعة من الأعمال التي غيَّبت دور الأفراد، وأكد على ضرورة توسيع الرؤية وفهم الواقع التاريخي فهماً تتعدد فيه مستويات التحليل، لأن الوقائع يساهم في صنعها فاعلون اجتماعيون وسياسيون، كلٌّ من موقعه في نسقٍ من التمفصلات والعلاقات. ومعنى ذلك أن مجريات كثيرة تظهر فيها قدرة الأفراد على الفعل والتغيير، لأن هؤلاء، كما يقول هذا المؤرخ «ليسوا كرات محبوسة داخل صناديق»، وإنما فاعلين سياسيين واجتماعيين تقاطعت أعمالهم مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية التي حملتهم للعب أدوار تاريخية طلائعية (بيرنار لوبوتي: 1995).

في حقيقة الأمر، تندرج دراسة بيرنار لوبوتي هذه، ضمن الموجة النقدية التي دشنها عددٌ من الباحثين منذ نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، وفي مقدمتهم فرانسوا دوس، والتي فعفعت ذلك التوجه المفرط في التداخل بين التاريخ والعلوم الاجتماعية على النحو الذي سارت عليه مدرسة الحوليات في سياق ما سمِّي بالأنثروبولوجيا التاريخية التي كادت أن تُفقِد التاريخ هويته (محمد حبيدة: 2018). وتعددت مثل هذه الدراسات التي أحدثت نوعا من التصالح مع الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين، ونبَّهت إلى تداخل تجارب الأفراد واتجاهات القوى الفكرية والاجتماعية، وتجاذب المراكز والأطراف، واستحضار السياقات والمسارات التي تمكِّن من الانتقال من إطار محلي إلى إطار عام يشمل كامل النسق الاجتماعي، مما يسهم في تحول التاريخ الصغير إلى تاريخ كبير (جاك روفيل: 1996).

هذا ما ينطبق على نابوليون الذي نبع من قاع المجتمع فتفاعل مع أحداث الثورة الفرنسية لتحمله ملابساتها إلى قمة الهرم في فرنسا، بل وأوروبا جمعاء. فمن أجاكسيو بجزيرة كورسيكا[1] في جنوب

---

(1) كانت فرنسا قد انتزعت كورسيكا من جمهورية جنوة عام 1768، أي سنة واحدة قبل ميلاد نابوليون.

فرنسا إلى العاصمة باريس، وإلى القاهرة وفيينا وبرلين ومدريد وموسكو، استطاع هذا الرجل القادم من الجنوب المطل على البحر الأبيض المتوسط أن يفرض رؤيته السياسية والقانونية على الجميع. لكن أن يصل شخصٌ من الهامش إلى مراكز القرار في كبريات المدن الأوروبية فهذا أمر لم يكن ممكنا إطلاقا قبل الثورة الفرنسية. ومعنى ذلك، أن سياق عصر الأنوار الذي ظهرت فيه المبادئ الداعية إلى الحرية والمساواة المدنية وإبطال الامتيازات الإقطاعية، هو الذي يسَّر هذه الحركية الاجتماعية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وتنطبق هذه الحركية على نابوليون مثلما تسري على عدد من الأشخاص الذين لعبوا دورا بارزا في مجرى الأحداث، وهم القادمون من الأسفل. ولعل أهم مثال على ذلك، خلال هذه المرحلة، ما يعرف بِ «المارشالات الستة والعشرون» الذين خاضوا حروبا مختلفة على جبهات أوروبية عدة تحت إمرة نابوليون، وهم المنتمون أصلا، في معظمهم، إلى فئة العامّة (ماكس رايْن: 1990).

عام 1921، وبمناسبة مرور مائة سنة على وفاة نابوليون، تعددت حوله الشهادات والدراسات، في شكل مؤلفات وأعداد خاصة في مجلات متخصصة، ابتداءً بالإشادة التي أدلى بها المارشال فيرديناند فوش المنتصر على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وهو ينحني أمام قبر نابوليون في محفل رسمي مهيب، ومرروا بمختلف المقالات الصادرة هنا وهناك، وخاصة «مجلة الدراسات

النابوليونية»، وانتهاءً بمؤلَّفيْ المؤرخِ والأكاديمي جورج لاكور غايْت الذي أصدر، في السنة المذكورة، كتابا تحت عنوان «نابوليون» قدَّم فيه حصيلةَ ما كُتب عنه معززا بصور فريدة ونادرة، والكاتبِ إيلي فُور صاحب «نابوليون»، الذي اعتَبر فيه هذا الأخير «نبيَّ الأزمنة الحديثة».

كانت اللحظة مواتية، آنذاك، للحديث عن نابوليون ليس فقط من زاوية أعماله السياسية والقانونية والعسكرية، بل أيضا من جانب حياته اليومية وعلاقاته مع المقربين منه، عائليا ومهنيا، فصدرت كتب ذات عناوين معبِّرة: «نابوليون: الوجه الحقيقي»، «نابوليون بأعين معاصريه»، أو أيضا «نابوليون الحميمي» لأرتير ليفي. ويرسم أرتير ليفي هذا، صورةً دقيقة عن نابوليون: بساطةُ حركاته ولغته، حرارةُ علاقاته مع أسرته، طريقةُ اشتغاله في البيت وفي العمل، حرصُه الشديد على الاستخبار على كل كبيرة وصغيرة، صرامتُه في تناول الأمور وإصدار القرارات، بعدُ نظره. في فصل تحت عنوان «صوت التاريخ»، ينتقل أرتير ليفي من الحياة الخاصة إلى الحياة العامة بنظرة تركيبية بديعة تضع القارئ في صورةٍ يظهر فيها نابوليون على رأس أوروبا: استتباب الأمن في فرنسا عقب الثورة الفرنسية، الفوز على الجيش النمساوي، السيطرة على شمال إيطاليا، احتلال ألمانيا وتغيير وجهها الترابي والقانوني، العلاقات مع الإسكندر الأول، قيصر روسيا، الدخول إلى موسكو، وأيضا صورة

«هذا الغول الكورسيكي (نسبةً لجزيرة كورسيكا) الذي لم يـمَلّ من الغزو، هذا المدمِّر الرهيب للبشر، هذا الأناني النابغة الذي ضحى بملايين البشر لتلبية رغباته الدموية وتحقيق تصوراته الوهمية» (أرتير ليفي: 1921).

وفي عام 2021، وبمناسبة مرور مائتي سنة على وفاته، تعددت الكتب الصادرة حول نابوليون. وقد استندت هذه المؤلفات إلى كشوفات أرشيفية مكَّنت من إلقاء الضوء على مناطق الظل المرتبطة بالخصوص بحياته الشخصية وسلوكه ومزاجه، وبعلاقاته بالضباط المعاونين له، وبمختلف الوجوه السياسية والعسكرية التي تقاطعت مع مساره كضابط وكإمبراطور[1]. ومن هذه الدراسات، تلك التي جادت بها قريحةُ مؤرخٍ ومحافظِ مكتباتٍ شابٍّ، شارل إيلْوا ليفي، حيث استطاع بفضل اطلاعه على أرشيفات دفينة بالخزانة الوطنية الفرنسية (أوراق ورسومات) الإمساك بالنقط الأساسية التي من شأنها إعادة بناء شخصيته كما عرفها معاصروه، والتي تطرح سؤالا في غاية الأهمية حول ما إذا كان نابوليون، هذه «الأسطورة الخالدة»،

(1) من هذه الكتب، يمكن ذكر:
Charles-Eloi Vial, *Napoléon: La certitude et l'ambition*, Perrin, Paris, 2020; Jean Tulard, *Marengo ou l'étrange victoire de Bonaparte*, Buchet-Chastel, Paris, 2021; Thierry Lentz, *Pour Napoléon*, Perrin, Paris, 2021 ; Wenceslas Godel, *Napoléon ou la solitude d'un visionnaire*, Éditions Clémentine, Porto-Vecchio, 2021; Michel Roucaud, *Dans les rangs de la Grande Armée de Napoléon*, Epa Editions, Paris, 2021; Pierre Branda, *La saga des Bonaparte,* Perrin, Paris, 2021; Stéphane Béraud, *La Révolution militaire napoléonienne*, 2 tomes, Editions Bernard Giovanangeli, Paris, 2021.

«سيدَ مسارِه أو سجينَ قدَرٍ أقوى منه». والبحث في هاتين النظرتين، نظرة الرجل ونظرة العبقري، هو الذي جعل هذه الدراسة تنسج عملا بيوغرافيا جديدا (إيلوا ليفي: 2020).

تكَّون نابوليون[1] تكوينا عسكريا في جنوب فرنسا ما بين 1779 و1784، ثم واصل هذا التكوين في باريس، حيث وسَّع مداركه في الكارتوغرافيا، وتخصَّص في المدفعية، وتدرج في المراتب العسكرية. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية سنة 1789، وعمره لا يتجاوز العشرين سنة، كان قد تحصَّل على رتبة ملازم. لكنه ما لبث أن ارتقى إلى رتبة عقيد. ويرى المهتمون بسيرته، من مؤرخين وسياسيين، وأدباء أيضا، أن هذا التكوين العسكري، الذي كان يستلزم الإقامة بمدرسة داخلية، قد عزله عن المجتمع وربَّى فيه نزعة الأنانية. بهذا الصدد، يحكي الروائي السكتلندي والتير سْكُوتْ، الذي ألَّف عام 1827 كتابا بعنوان «حياة نابوليون»، ما قاله شقيقه، لوسيان بونابَّرت، ذات يوم، كون أن «سلوكَه لم يكن منظوما إلا بالسياسة، وسياستَه لم تكن تتأسس إلا على الأنانية». ويتابع سْكُوتْ تحليله: «لقد كشف له الإحساس الحميمي بمواهبه بأن لا مكان له بين الناس العاديين، مما زاد من نزعته الأنانية التي صارت راسخة إلى حد ما، مع حياة الانعزال، حيث وجد نفسه من دون صديق ولا نصير. والثناء الذي تلقّاه همَّ عبقريته وليس شخصه، وما شعر به في

(1) Napoléon Bonaparte: الاسم الأصلي كان ذا نفحة إيطالية (نابوليوني بونابّارتي/ Napoléone Buonaparte)

أعماق قلبه من أنه سلك طريقه بنفسه، لم يكن مرتبطا البتة بالامتنان لأولئك الذين لم يفسحوا له المجال إلا لأنهم لم يجرؤوا على إيقافه. وطموحه كان نوعا من أنواع الأنانية. وإذا أخضعنا هذا الطموح، العظيم من دون شك في آثاره ونتائجه، للتحليل الدقيق، فإنه لا يُفضي إلا إلى الأنانية كحصيلة».

كانت ملابسات الثورة الفرنسية، التي استمرت من 1789 إلى 1794، المرتبطة بالتخلص من لويس السادس عشر في مرحلة أولى (1793) ومن روبيسبيار في مرحلة ثانية (1794)، هي التي فسحت له المجال للبروز كشخصية فاعلة في مجرى الأحداث. في بداية الأمر، كان نابوليون قد أبان عن كفاءته العسكرية لما قاد حصارا على مدينة تولون في الجنوب لتحريرها من الإنجليز الذين كانوا قد هجموا على فرنسا من كل الجهات قصد إعادة النظام الملكي إلى البلاد. كان ذلك في دجنبر 1793، في وقت كان فيه روبيسبيار هو سيد فرنسا الأول. بعد ذلك، عقب سقوط هذا الأخير وتنامي التيار المعادي للثورة، كلَّفه بول باراس، رئيس الديريكتوار، بسحق التمرد الموالي للويس السادس عشر بباريس، والمموَّل من طرف بريطانيا العظمى. وقد استطاع نابوليون فعلا سحق المتمردين الذين كانوا يرغبون في الاستيلاء على مقر البرلمان. وكان الانتصار في هذه العملية، في أكتوبر 1795، هو الذي أكسبه ثقة البرلمانيين وأهَّله للارتقاء إلى رتبة جنرال، ثم إلى قائد عام للجيش الفرنسي، ليسطع

نجمه في سماء فرنسا. ثم بعد ذلك، عقب عودته من حملته العسكرية على مصر (1798-1801) في خريف 1799، وفي خضم الصراع بين التيار الملكي والتيار اليعقوبي (الراديكالي)، استطاع نابوليون إزاحة حكومة الديريكتوار وتنصيب نفسه حاكما للبلاد من درجة «قنصل أول». هذا ما يسمى في تاريخ فرنسا بِ «عهد القنصلية» (1799-1804)، والذي أعقبه عهد الإمبراطورية لما ولَّى نفسه إمبراطوراً في 2 دجنبر 1804 بكاثيدرائية نُوترُودام بباريس بحضور البابا بيوس السابع. كان لاس كازْ الذي حرَّر «مذكرات سانْت هِيلانة»، وهو رفقة نابوليون في منفاه، قد كتب: «لقد سار نابوليون، وقد خرج من صف العامة ليصعد إلى أعلى الدرجات، على رأس الثورة التي هذَّبها تماما» (1823).

هذا التتويج له أكثر من دلالة. سبق أن قلنا بأن الشكل الإمبراطوري الذي اتخذه نابوليون نظاما للحكم يمثل عودةً إلى العهد البائد، وذلك في تعارض صريح مع التوجه الثوري للحاكم الجديد. هذا صحيح من هذه الزاوية. لكن، من زاوية أخرى، يذهب بنا التأويل إلى نتيجة أخرى، كون أن نابوليون، وسعيا منه لإخراج فرنسا من حالة القلاقل والفتن التي عرفتها عقب الثورة، أراد من خلال النظام الإمبراطوري إظهار عظمة الدولة، الموروثة عن الرومان، و«تأكيد استمرارية الأمة بعيدا عن القطيعة الثورية» (إسطوغرافيات: 2010).

وما يثير الانتباه في مسار نابوليون، هو أن تكوينه لم يقتصر على ما هو تقني وعسكري. كان التاريخ في صلب هذا التكوين. كان يقرأ كثيرا كتب التاريخ بفضل أستاذٍ للتاريخ كان قد حبَّب إليه هذه المادة، حيث تأثر كثيرا بتاريخ الإغريق والرومان، ووجوهه البارزة مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، وحتى بتاريخ القرون الوسطى وخاصة بشارلمان. وتذكر كتب السيرة التي أُلِّفت عن نابوليون أن هذا الأستاذ كان قد قال ذات مرة: «هذا الشاب الكورسيكي الطبع والوطني المنزع قد يذهب بعيدا لو سمحت له الظروف بذلك» (إريك ديلموت: 1990). كان التاريخ حاضرا في تجربة نابوليون: الإسكندر الأكبر وتوسيع الحدود إلى أبعد مدى، القيصر وعظمة الدولة، شارلمان وطموح توحيد أوروبا. كل هذه التجارب، قرأها وفهِمها وتشبع بها. والأكثر من ذلك، جسَّدها على أرض الواقع. في خطاب تلاه فيكتور هوغو عام 1841 بالأكاديمية الفرنسية، نقرأ ما يلي: «رجل خرج من الظل... وأصبح أميرا بعبقريته وبمساره وبأعماله... رجل رعته الثورة، واختاره الشعب وتَوَّجه البابا... كانت شهرته العسكرية عظيمةً وحملاته جبارةً. كل سنة، كان يدفع بحدود إمبراطوريته إلى ما وراء الحدود المهيبة والضرورية التي وهبها الله لفرنسا».

4

حملة نابوليون على مصر
نارٌ ونورٌ

كانت قراءة نابوليون للوضع في فرنسا، المهدَّدة من قِبل البلدان المجاورة بسبب الحَرج الذي تسببت فيه ثورة 1789 للأنظمة المونارشية، قد انبنت على سياسة «الهجوم من أجل الدفاع»: الهجوم على هذه البلدان المجاورة قصد ردعها وجعلها تقبل بنظام جديد على حدودها. حدث هذا في سياق الصراع مع بريطانيا التي تزعمت العداء الأوروبي ضد فرنسا. وقد أظهر نابوليون في عملية الهجوم هذه مهارات وقدرات خارقة في ميدان المدفعية، استطاع بها سنتي 1796 و1797 السيطرة على مناطق شاسعة في إيطاليا الشمالية (لومبارديا)، وخاصة ميلانو التي كانت تحت حكم النمسا. كما استطاع ضم عدد من المناطق والمدن إلى التراب الفرنسي، منها مدينة نِيسْ، والاستيلاء على كميات هائلة من خيراتها في شكل أموال ولوحات فنية وغيرها. وقد تأتى له ذلك عقب التغلب على الجيش النمساوي الجرّار وقائده المحنَّك جون بيار بُولْيو، هذا الجنرال البلجيكي الذي كان في خدمة سلالة هابسبورغ النمساوية،

وذلك في معارك ما زالت تدرَّس اليوم في الأكاديميات العسكرية. «بونابَّرت يطير مثل البرق، ويضرب مثل الصاعقة»، هكذا علقت الصحافة على انتصاراته في ذلك الإبّان.

عقب هذا الفوز، كتب نابوليون: «في هذه اللحظة، اعتبرتُ نفسي أكثر من جنرال، اعتبرتُ نفسي مدعوّاً للتأثير في مسار أمة بأكملها. لقد رأيتُ نفسي أدخلُ التاريخ» (إريك ديلموت: 1990). في واقع الأمر، كانت الحملة على إيطاليا نقطة انطلاق شهرة نابوليون وعظمته، حيث استقبله الباريسيون كبطل كبير، حتى أصبح يظهر كأقوى رجل في البلاد. وتضخمت هذه الشهرة بفضل حملته العسكرية على مصر عام 1798.

كانت هذه الحملة تدخل ضمن خطة تقضي بمضايقة الإنجليز، وبفتح آفاق تجارية أمام البورجوازية الفرنسية بالتجارة مع الشرق العربي، والتفكير في فتح قناة تربط بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر للتجارة مع الهند والشرق الأقصى ومنافسة التجار البريطانيين.

في هذه المرحلة المبكرة من عمله السياسي والعسكري، كانت رؤية نابوليون تسعى لاحتضان العالم برمته. لم تكن الحملة على مصر إلا مكوناً من مكونات هذه الرؤية العالمية التي فشلت في نهاية المطاف. فقد امتدت هذه السياسة التوسعية إلى الشام والهند وأستراليا وجزر الكاريبي. لكن سياسةً مثل هذه كانت تستلزم الهيمنة على البحار

والمحيطات كشرط أساسي لتطوير مشروع استعماري واسع النطاق على النحو الذي استأثرت به بريطانيا العظمى.

بعد موافقة الديريكتوار على خطة نابوليون، أسس هذا الأخير «جيش الشرق» في مطلع عام 1798، ونظَّمه تحت قيادة ثمانية ضباط. ومعلوم أن جيش الشرق هذا، تكوَّن بالموازاة مع «معهد مصر»[1] الذي أوكِلت له مهمة علمية تحت إشراف المهندس غاسبار مونج. وكان هذا المعهد قد انبثق عن هيئة العلوم والفنون[2] التي كانت تضم علماء آثار ومهندسين مختصين في المناجم، ومطبعيين، ورسامين، وفلكيين، ومترجمين وغيرهم، بلغ عددهم 154 عالما.

انطلقت الحملة من مدينة تولون المطلة على البحر الأبيض المتوسط بجنوب فرنسا، على متن أسطول ملاحي كبير (280 سفينة، و54000 جندي). استطاع أسطول نابوليون في مرحلة أولى التخلص من مضايقة الأسطول الإنجليزي، والسيطرة في مرحلة ثانية على جزيرة مالطة بوَسَط هذا البحر بمساعدةٍ من الإيطاليين، حيث ترك بها كتيبةً عسكرية مكونة من 3000 جندي لتأمين الصلة بين فرنسا ومصر.

في 1 يوليوز من عام 1798 ليلا استطاع الأسطول الفرنسي احتلال مدينة الإسكندرية عقب مقاومة ضعيفة لم تدم طويلا. وبعد

(1) Institut d’Egypte

(2) La commission des sciences et des arts

ذلك، في 23 من نفس الشهر، دخل جيش نابوليون القاهرة عقب معركة الأهرامات. وبين هذين التاريخين، وجَّه الرجل رسالة إلى المصريين، هدَّد فيها المماليك الذين «يتسلطون في البلاد المصرية» و«يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي» (عبد الرحمن الجبرتي: 1822).

كانت مصر من الناحية السياسية مقاطعة عثمانية، خاضعة لسلطة المماليك، ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية كانت أقليةٌ من الإقطاعيين تتحكم في شعبٍ من الفلاحين المقهورين. وثقافيا، كان التقليد غالبا على التجديد. وعموما، كانت حالة مصر مثل حالة مجموع الأقطار العربية الإسلامية في هذه المرحلة: ركود واطمئنان لما تركه السلف، في وقت كانت فيه أوروبا قد انخرطت منذ قرون في ديناميةٍ من التجديد والابتكار (عصر النهضة، فلسفة الأنوار، الثورة الصناعية)، مما جعل اللقاء بين الغرب والشرق مثل «اصطدامٍ بين آنية من حديد وآنية من فخار»، كما قال جون دو لافونتين في إحدى استعاراته الواردة في «الحكايات»، قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة. كانت صدمةً، وكانت فعفعةً أيضا، لأنها أيقظت روح المصريين الذين بادروا فيما بعد، مع محمد علي باشا، إلى عملية تحديثٍ معتبَرة، وإن كانت عسيرةً ومتذبذبةً بسبب مقاومة القوى المحافظة.

وعموما، يمكن اختزال ما وقع بعد احتلال القاهرة في النقط الآتية:

- تصدِّي الإنجليز بقيادة ويلسون للأسطول الفرنسي وهزمه في موقعة أبي قير بساحل الإسكندرية (1-2 غشت)

- 21 أكتوبر: انتفاضة المصريين في سياق الدعوة إلى الجهاد ضد الكفار حيث قتل المصريون مئات الفرنسيين. وزاد من هذا الضغط الجيش العثماني المدعوم من طرف البريطانيين.

- مارس-مايو 1799: الهجوم على الشام وفشل حصار مدينة عكّا بفضل بسالة أهلها بقيادة الحاكم أحمد باشا الجزار.

- أكتوبر 1799: عودة نابوليون إلى فرنسا للتصدي للتحالف الإنجليزي الروسي النمساوي، ولمواجهة الأزمة الاقتصادية التي كانت تهدد البلاد بالإفلاس، تاركا قيادة الجيش للجنرال جون باتيست كليبير.

- 1800: بداية تراجع الجيش الفرنسي بفعل التحالف البريطاني العثماني.

- 1801: انهزام الجيش الفرنسي أمام الأسطول البريطاني والانسحاب من مصر.

ومن أهم ما كُتب عن هذه الحملة وما خلقته من تغيُّر في الأحوال، «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، و«مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»، والتأليفان معا للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (1753-1825) الذي كان شاهدا على ما دوَّنه من أحداث وتقلُّبات. فقد وصف هجمة «بونابَّرته» على مصر بِ «الخطْب الفظيع والحادث الجلل الشنيع» الذي أصبحت على إثره «مقهورةً، بعد أن كانت هي القاهرة» (مظهر التقديس). في فصل تحت عنوان «دخول الفرنساوية الإسكندرية» من كتاب «عجائب الآثار»، نقرأ ما يلي: «هي أول سِني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب». كان المصريون مطمئنين لحياتهم وتقاليدهم وتقنياتهم حتى حصل ما حصل: دخل الإفرنج البلاد كالسيل، «فدُهِي الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم». وقد أسهب الجبرتي في حكيِ أخبار الحملة الفرنسية وما وقع من جراء ذلك من الصدامات والمناوشات بين المصريين والفرنسيين، وذكرِ التشريعات التي أصدرها نابوليون لتنظيم بعض مناحي الحياة اليومية مثل ترتيب الدواوين «على تنظيم آخر» وتخصيص «شهرية»

تُدفع لأرباب الوظائف «نظير تقيُّدهم بمصالح العامة»، وشؤون حفظ الصحة، وغير ذلك من التنظيمات الجديدة.

كانت الحملة الفرنسية على مصر فاشلة من الناحية العسكرية. فقد تصدى البريطانيون للفرنسيين على نحو صارم وطردوهم في نهاية المطاف. كان نابوليون قد غادر مصر، بعد سنة من دخولها. وكان الجنرال جون باتيست كليبير الذي تولَّى مهمة قيادة الجيش الفرنسي قد وجد نفسه بين مطرقة البريطانيين وسندان المصريين والعثمانيين، فقُتل طعنا على يد طالب سوري كان يدرس بالأزهر، بعد أقل من عامٍ على تولِّيه المهمة. وكانت مجريات الأمور، عقب ذلك، قد أضعفت الفرنسيين عدديا وأنهكتهم صحيا وأرهقتهم نفسيا، فانهزموا في موقعة كانوب (21 مارس 1801) أمام البريطانيين، واستسلموا في الإسكندرية، حيث رُحِّلوا من هناك إلى فرنسا على متن سفن إنجليزية.

وفي المقابل، فتحت حملة نابوليون آفاقا علمية واعدة، حيث اكتشف الفرنسيون مآثر كثيرة، منها حجر رشيد[1]، تلك النقيشة المشتملة على نصوص هيروغليفية وإغريقية، التي تعود إلى عام 196 قبل الميلاد، والتي فتحت الباب أمام العالم جون فرانسوا شامبوليون، ومكَّنته عام 1822 من فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية، وعلماء آخرين أماطوا اللثام عن خبايا تاريخ الفراعنة والأهرام. لقد أسست

(1) Pierre de Rosette.

الحملة لما عُرِف فيما بعد بعلم المصريات، الذي ساهم فيه علماء آثار ومؤرخون مرموقون من بلدان أوروبا الغربية بالخصوص. هذا ما جعل المؤرخ الفرنسي إيف لِيسُوس ينعت الحملة الفرنسية على مصر بِ «المغامرة العلمية» (1998). وقد كان من النتائج العلمية الفورية لهذه الحملة، صدور موسوعة تحت عنوان «وصف مصر» عام 1809، «بأمر من جلالة الإمبراطور نابوليون الأكبر»، كما هو مبيَّن في النسخة الأصلية[1]، والتي شكَّلت، بالقياس إلى دقة الملاحظات والرسومات والخرائط وكثافتها، مرجعا أساسيا بالنسبة لجميع الذين أرادوا سبر أغوار حضارة مصر وثقافتها، وحتى بالنسبة للمصريين الذين تنبَّهوا لأهمية تاريخهم الفرعوني بعدما كانوا يعتبرونه تاريخا وثنيا.

وقد وقف إدوارد سعيد، في سياق موجة الدراسات الأنجلوساكسونية ما بعد الكولونيالية، في كتابه «الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق»، على أهمية النتائج العلمية للحملة الفرنسية على مصر، وكيف دشَّنت لسلسلة من التمثلات والخيالات والتصورات والخطابات الغربية التي راجت عن «الشرق» وابتدعته كمفهوم، وكيف منحت لهذا الغرب أداةً من أدوات التفوق الحضاري، ووسيلةً لتبرير التوسع الاستعماري والهيمنة على مدى

(1) *Description de l'Égypte, ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'Armée française*, publié par les ordres de Sa Majesté l'Empereur Napoléon le Grand, Paris, L'imprimerie impériale, 1809.

القرن التاسع عشر، وحتى العشرين. فقد اعتبر الحملة نموذجا «للاستيلاء العلمي الحقيقي على ثقافة ما من جانب ثقافة أخرى أقوى منها فيما يظهر»، وإطارا «ازدهر فيه الاستشراق، إذا أصبح يُنظر إلى مصر ومن بعدها البلدان الإسلامية الأخرى بصفتها المسرح الحي للمعرفة الغربية عن الشرق» (إدوارد سعيد، 1978/ ترجمة محمد عناني: 2006).

ومثلما حصل في فرنسا، خلال السنة الجارية بمناسبة مرور مائتي سنة على وفاة نابوليون، حيث تجدَّدت الدراسات والنقاشات حوله كما ذكرنا سالفا، أحيا المثقفون المصريون الجدال بخصوص حملة 1798. بهذا الصدد، وعلى خلاف الآراء التي لم تر في هجمة نابوليون غير عدوان استعماري، اعتبر الكاتب المصري الفرنسي روبير سوليه، صاحب كتاب «علماء بونابَّرت في مصر»، أن الدولة المصرية الحديثة اعتمدت على ما قدمته الحملة من «إضافات علمية وسياسية». وسار الكاتب والصحفي محمد سلماوي في نفس الاتجاه لما قال بأن الحملة كانت مزيجا من «النار والتنوير»، لأنها من ناحية «كانت حملة عسكرية إمبريالية»، ومن جهة أخرى «جاءت بالعلوم والتقدم» (صحيفة العين الإخبارية: 2 مايو 2021).

في واقع الأمر، هذه الرؤية المزدوجة التي رأت في الحملة الفرنسية على مصر نارا ونورا، والتي تظهر في الكثير من الدراسات، العربية وغير العربية، هي التي سبق أن عبَّر عنها ألبير لابونريه في

الكتاب الذي نشره عام 1837 تحت عنوان «سيرة الملوك والأباطرة والبابوات» بالقول: «كان نابوليون، في غزواته الحربية، يمسك بالسيف باليد التي تقتل، وبالمشعل باليد الأخرى التي تُنير وتُحيِي» (سودير هزاريسينغ: 2010).

5
نابوليون على رأس أوروبا
1815-1805

اعتلى نابوليون قمة المشهد السياسي الأوروبي بقوة السلاح، إذ خاض عددا كبيرا من المعارك، انتصر في أربعين منها، أهمها معركة أوستيرليز (الفوز على التحالف النمساوي الروسي عام 1805) ومعركة جِينا (الفوز على الجيش البْروسي عام 1806) ومعركة فاغرام (الفوز على الجيش النمساوي عام 1809). في الدراسات التاريخية، تُعرف الحروب والحملات التي شنها بمختلف أنحاء أوروبا، جنوبا وشرقا وشمالا، بالحروب النابوليونية التي يعتبرها المؤرخون أول الحروب المدمِّرة في تاريخ البشرية. وكانت هذه الحروب قد اندلعت في سياق الصراع بين فرنسا وبريطانيا. كانت فرنسا، «القوة التقدمية» التي ألهبت حماس الثوريين في عدد من الأقطار الأوروبية، وبريطانيا باعتبارها «القوة الملاحية» التي لا تُقهر، قد دخلتا في صراع مرير من أجل فرض نظام أوروبي يخدم مصلحة هذا الطرف أو ذاك من الناحية الجيو-سياسية. كان الطرفان قد وقَّعا على معاهدة أمْيان في الخامس والعشرين من مارس عام

1802، التي وضعت حدا لنفوذ فرنسا في منطقة الشرق العربي عقب الهجمة على مصر، وكبحت جماح نابوليون على الصعيد الأوروبي. لكن، في واقع الأمر، لم تكن هذه المعاهدة سوى هدنة مؤقتة، ذلك أن الرغبة في بسط الهيمنة على أوروبا جعلت أطراف المعاهدة تخرج عن مقتضياتها وإعلان الحرب.

تستدعي هذه الأمور جملة من الملاحظات الأولية:

ملاحظة أولى: وفرة الدراسات. أفرزت الحروب النابوليونية دراسات كثيرة بمختلف اللغات، جمعت بين التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي لجيش نابوليون. وقد استندت هذه الدراسات إلى قراءة جديدة في الأرشيف، ومناهج منفتحة على علوم كثيرة، سياسية واجتماعية ولسانية، إذ قدمت تأويلات جديدة للأحداث والوقائع، وصالحت بين أصناف التاريخ المتضاربة (تاريخ الأحداث وتاريخ البنيات). حصل هذا ليس فقط مع موجة عودة الحدث، المرتبطة بالمنعطف النقدي (محمد حبيدة: 2018)، بل منذ سبعينيات القرن الماضي لما أنار المؤرخ البريطاني، جون كِيغْن، الطريقَ في كتابه المؤسِّس «تشريح المعركة» (1976). فقد أبان في دراسته لعدد من المعارك، ومن بينها معركة واتيرلو، أن النظر إلى المعارك من تحت، كما عاشها الجنود، وليس من فوق، كما خطَّطت لها هيئة الأركان العامة، يمكِّن من قلب منظور الملاحظة ومن ثم الكشف عن تجربة الحرب كظاهرة سوسيولوجية وسيكولوجية تتجلى فيها الممارسات

والإحساسات والتمثلات. ومن الدراسات الحديثة الصدور، التي تندرج ضمن هذه الرؤية، يمكن ذكر الكتاب الجماعي الذي ألّفه كل من هيرفي دريفيون، وبيرتراند فونْكه، وميشال روكو، «الحروب والجيوش النابوليونية» (2013). في هذا الكتاب، الذي اطلع فيه الباحثون على وثائق وزارات الدفاع الأوروبية، وعلى مذكرات الضباط ومراسلاتهم أيضا، يلمس القارئ سعي المؤرخ إلى كتابة تاريخ شامل يجمع بين التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي، وأيضا ما تعلق بالتمثلات. ولذلك، يسلط هذا الكتاب الضوء على جوانب كثيرة محيطة بهذه الحروب التي خاضها نابوليون على الساحة الأوروبية، منها الاقتصاد والقانون والعلاقات الاجتماعية والفنون والمعيش اليومي للجنود والأسرى والمعطوبين، مما يمنح لهذه الحروب وجها اجتماعيا حقيقيا، ولكتابة التاريخ سمة تجديدية حقيقية.

ملاحظة ثانية: التكوين. كانت الجيوش الأوروبية تشتغل وفق تكوين مخصوص في مدارس وأكاديميات ما فتئت تتطور أساليب اشتغالها بفضل التقنيات الجديدة التي مكنت منها الثورة الصناعية، وخاصة المدافع، وأيضا بفضل التقدم الحاصل في الكارتوغرافيا التي وفَّرت للضباط والجنود سبل التحكم في مختلف أنواع التضاريس عبر رسم الخرائط وفك رموزها. في فرنسا، كانت أول أكاديمية حربية قد تأسست عام 1751 على عهد لويس

الخامس عشر، وأخذت على عاتقها تكوين جنود وضباط مشبعين بالانضباط وروح الدفاع عن البلاد. ثم تعددت الأكاديميات بعد ذلك لتصل إلى 12 مؤسسة عسكرية. وفي عهد نابوليون ازداد عدد هذه المدارس، مع تركيز ملحوظ على المدارس البحرية أو ما سمي بِ «المدارس البحرية الخاصة»[1]. وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالتكوين العسكري الملاحي، فإن فرنسا لم تستطع مواكبة التفوق البريطاني وجهازها المعروف بِ «رْوايال نايْفي»[2]. فبريطانيا كانت قد راكمت تجربة عريضة في هذا الميدان، منذ القرن السابع عشر، حيث اعتمد كرومويل «قوانين الملاحة» عام 1651، إذ جرى التركيز على إنشاءِ أسطول ملاحي قوي، وإحداثِ تراتبية ملزمة بين الضباط، والاستفادةِ من حصة معلومة من الضرائب قصد تطوير التكوين وتعزيز الأسطول، مما يفسر الانتصارات المتعددة التي حققتها البحرية البريطانية على البحرية الفرنسية في معارك كثيرة، أهمها بالنسبة للمرحلة التي تعنينا، هي معركة «الطرف الأغر» بمقربة من سواحل إسبانيا، كما سنرى فيما بعد.

ملاحظة ثالثة: ضخامة الحروب. تعتبر الحروب النابوليونية أضخم حروب عرفتها البشرية في العصر الحديث قبل الحرب العالمية الأولى. كانت حربا مدمرة. كانت «حربا شاملة» كما قال المؤرخ الأمريكي دافيد بيلْ في كتاب تحت عنوان «أوروبا تحت حكم

(1) ESM: Les Ecoles Spéciales de Marine

(2) Royal Navy

نابوليون: نشأة الحرب الحديثة» (2007). ويُفسَّر مفهوم الشمولية هذا بأجواء تعبئةِ بلدٍ بأكمله حول مشروع حربي، ساهم فيه الإعلام المحلي بدعاية هائلة كان القصد منها تقوية الارتباط بالوطن، مما شكَّل عاملا من عوامل نشأة الحس القومي في القرن التاسع عشر. كانت الجيوش ضخمة على مستوى العدد، وكانت مكونة من جنود شباب لا يتجاوز معظمهم سن العشرين. نابوليون نفسه كان قد تخرَّج سنة 1785، بدرجة ملازم ثانٍ وعمره ستة عشر عاما. هذا مع العلم أن الهرم السكاني في فرنسا وفي أوروبا عموما تميز، خلال هذه المرحلة، بقاعدة عريضة، كون أن نسبة الشباب كانت هي الغالبة. ويقدِّر الباحثون عدد الجنود الفرنسيين بِ 1.500.000، والجنود البريطانيين بِ 750.000. هذا في الوقت الذي كان فيه عدد السكان في فرنسا يناهز 27 مليون نسمة، وفي بريطانيا 12 مليون نسمة. وكان الجيش الفرنسي قد سمي، منذ عام 1805 بالجيش العظيم، كما يظهر في رسالةٍ كان قد بعث بها نابوليون إلى أحد مارشالاته، لما عزم على الدخول في حرب ضد النمسا.

وتتجلى ضخامة هذه الحروب أيضا في جسامة الخسائر البشرية. كان عدد الضحايا، من قتلى وجرحى ومرضى، كبيرا جدا: مليونان على الصعيد الأوروبي. وهذا رقم كبير جدا بالقياس إلى عدد السكان في بداية القرن التاسع عشر. ويذهب بعض الدارسين لهذا الموضوع بهذه الأرقام الرسمية إلى خمسة ملايين من الضحايا،

بالاستناد إلى مختلف المؤشرات التي تمنحها مذكرات ومراسلات الضباط والجنود الذين شاركوا في هذه الحروب.

وجدير بالإشارة أن ضخامة هذه الحروب كانت قد انعكست بصورة جلية على المشهد الاجتماعي. كان أصحاب الزي العسكري، من بين أهالي المدن، قد تكاثر عددهم، بمختلف رُتبِهم، في الشوارع والأزقة والمقاهي والخمَّارات والفنادق خلال هذه المرحلة، مع تكاثر الثكنات والمدارس الحربية، ومع تحول الحصون والقصور إلى محلات لإيواء الجنود، حتى صار حضورهم ملحوظا، بل مزعجا. بهذا الشأن، تروي التقارير نزاعات كثيرة حصلت بين المدنيين والعسكريين داخل المدن، منها تقرير يعود إلى 9 يوليوز 1804، جاء فيه:

«بالأمس تسبَّب أربعون جنديا من جنود الخيالة في إحداث الفوضى، وتحرشوا بالنساء. وأول أمس، دخل ثلاثة ضباط [مع ذكر أسمائهم ورُتبِهم] مسلحين على تاجر خمور [مع ذكر اسمه] بشارع شانزليزيه [بباريس] وهددوه بالسلاح، هو وحرّاس المتجر الذين أرادوا اعتراض سبيلهم. وقد تدخل رجال الشرطة وألقوا القبض على واحد منهم، وأودعوه مركز الشرطة الكائن بنفس الشارع، لكن لم يكن هناك ضابط ولا قائد، وحتى باقي أفراد الشرطة امتنعوا عن تقديم المساعدة لإيقاف الجنديين الآخرين. وبعد برهة، عاد هذان الجنديان الهاربان بسلاحهما وأفرجا بالقوة عن صاحبهما، وحبسا

علاوة على ذلك أحد رجال الشرطة بالمركز المذكور.» (جون تولار: 1978)

كان ذلك مؤشرا من مؤشرات مجتمع جديد ناشئ لعب فيه ذوو البِزّة ذات الشكل الموحد، من جنود وشرطة ودرك وبحارة، دورا ما فتئ يتنامى مع مرور الزمن على مستويات متعددة، اجتماعية وسياسية، حتى أن المؤرخ الفرنسي مارك فيرو اعتبر في بحثه حول ثورة 1917 الروسية أن هذه الأخيرة قام بها أساسا أصحاب البِذل النظامية، لما اعتمد الصورة مصدراً لفهم هذا الحدث، كون أن كل الصور الفوتوغرافية والمتحركة المرتبطة به تغلب عليها مشاهد البِذل هذه.

الهزيمة الصغرى

الطَّرف الأَغَر

أدت الصراعات بين فرنسا وبريطانيا إلى نقض معاهدة أميان، ودخول الطرفين في حرب ملاحية جنوب إسبانيا، بين مدينتي قادس وطريفة، على مقربة من مضيق جبل طارق. كان الأسطول الفرنسي، بقيادة الأميرال فيلنُوف، الذي انضمت إليه البحرية الإسبانية، يتوفر على 33 سفينة حربية، بينما لم يكن للأسطول البريطاني سوى 27 بارجة. لكن بالمقابل، كانت البحرية الملكية البريطانية تتوفر على تجربة كبيرة في مجال الحروب الملاحية. كانت خطة نابوليون، بالقياس إلى هذا التفوق العددي، تقضي بالهجوم على إنجلترا وإخضاعها

لسلطته، غير أن القدرة التكتيكية البريطانية تفوقت كثيرا على هذه الخطة، إذ تم استدراج الأسطول الفرنسي إلى جنوب إسبانيا، ومباغتته، وتدمير نصف سفنه، وذلك يوم 21 أكتوبر 1805، في حين لم يفقد الأسطول البريطاني، بقيادة الأميرال نيلسون الذي مات في المعركة، ولو سفينة حربية واحدة.

وتشير الدراسات، التي اعتمدت على وثائق البحرية الفرنسية، إلى أن نابوليون لم يستسغ هذه الهزيمة، إذ اعتبرها، في حواراته مع الضباط المحيطين به، معركةً طائشة تسببت فيها العواصف البحرية أكثر مما تحكمت فيها الخطط الإنجليزية. ولذلك، عمل كل ما بوسعه لطمس ذِكرها على لسان الصحافة الفرنسية. وعلى أرض الواقع، دفعت هذه الهزيمة نابوليون إلى إعادة النظر في نظام البحرية، بالعمل على تطويرها، إذ أمر بالاستمرار في بناء السفن، وتحسين الموانئ، وإنشاء مدارس خاصة للتكوين في ميدان الملاحة العسكرية في مدينتي بريسْت بالشمال الغربي على المحيط الأطلنتي، وتولون بالجنوب على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

من الجانب البريطاني، ألَّف المؤرخون والسياسيون والأدباء الكثير عن هذه المعركة. لكن الإنجليز، الذين احتفلوا بهذا النصر احتفالا كبيرا عام 1905 بمناسبة مرور مائة سنة على الحدث، وعام 2005 أيضا بحضور الملكة إليزابيث الثانية في استعراض ملاحي كبير، غالبا ما يستحضرون هذا الحدث بالاحتفاء بلوحةٍ زيتية من

الحجم الكبير كان قد رسمها وليام براسي هُول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثِّلُ موتَ الأميرال نيلسون في المعركة وتخلد ذكره باعتباره «بطلا من أبطال البحرية الملكية».

كان من نتائج «كارثة الطرف الأغر»، كما يقول المؤرخون الفرنسيون، أن عجزت فرنسا عن اللحاق بِ «البحرية الملكية» البريطانية، على الرغم من جهود نابوليون الملاحية، فخضعت السواحل الفرنسية لحصار من طرف سفن بريطانيا، مما أضر كثيرا بالتجارة الملاحية الفرنسية، وأجبر نابوليون على الانحصار داخل القارة. أما بريطانيا، فأكدت سيادتها الكاملة على البحار والمحيطات، باعتبارها أقوى أمة ملاحية في أوروبا، وفي العالم بأسره طيلة القرن التاسع عشر. هذا ما دفع الكثير من الباحثين، وفي مقدمتهم الباحث البريطاني رُويْ أدكينس، إلى القول بأن هذه المعركة كانت فاصلة من الناحية التاريخية، بل إنها «غيرت وجه العالم».

ويعقد عدد من المؤرخين مقارنة بين معركتي الطرف الأغر وواتيرلو اللتين انهزم فيهما نابوليون، الأولى في البحر والثانية في البر. فكلاهما كانت أمام بريطانيا، وكلاهما كرّستا هيمنة هذه الأخيرة على البحر والبر على السواء. ومن أهم الدراسات التي سارت في هذا الاتجاه تلك التي قام بها روني مايْن عام 1955، ونعت فيها الطرف الأغر بِ «واتيرلو الملاحية»، التي كانت آخر أكبر معركة بحرية تقام بالأشرعة، ذلك أن الحروب الملاحية تطورت بعد ذلك تطورا كبيرا.

نابوليون وهيجل وجها لوجه احتلال ألمانيا

عقب هزيمة الطرف الأغر، وجه نابوليون أنظاره من جديد إلى القارة، ولاسيما جهة ألمانيا وأوروبا الوسطى. جهَّز جيشا جرّارا وتقدَّم به نحو أوستيرليز (ببلاد تشيكيا الحالية) لتكسير التحالف النمساوي الروسي المدعوم من طرف بريطانيا. هذا ما يعرف في تاريخ أوروبا بِـ «معركة الأباطرة الثلاثة» (نابوليون إمبراطور فرنسا، وفرانسوا الثاني إمبراطور النمسا، والإسكندر الأول إمبراطور روسيا) التي جرت أطوارها يوم 2 دجنبر 1805. وقد ترتب عن ذلك اقتحام الجيش الفرنسي لمدينة فيينا عاصمة النمسا، ووضع حد للإمبراطورية الجرمانية المقدسة التي كانت النمسا على رأسها، والسيطرة على أراضيها في ألمانيا وإيطاليا. لقد شكلت معركة أوستيرليز محطة هامة في المسار الذي خطه نابوليون لنفسه على مستوى أوروبا، حيث جعل الجميع ينحني إجلالا وإكبارا لعبقريته العسكرية. في تعليق على هذه المعركة كان الجنرال البْروسي كارل فون كلوزفيتز، الذي قضى سنتين في الأسر لدى الفرنسيين، قد قال: «نابوليون، إنه إله الحرب» (جون تولار: 2021).

كان نابوليون قد اعتمد في هذه الحرب، كما في حروب أخرى لاحقة، على الاستخبار. بهذا الصدد، تتداول كتب التاريخ، بناءً على مذكرات الضباط والجنود، قصة الجاسوس الألماني كارل لودفيغ

شولمايْستر الذي قدَّم خدمات جليلة لنابوليون لتيسير مهامه وخططه والظفر بخصومه. في الحرب ضد النمسا وبْروسيا كان دوره حاسما في النصر، وفي إدارة شؤون الأهالي من الناحية البوليسية بالمدن المكتسحة، مثل فيينا وبرلين. وقد وضع الباحثون مؤلفات عديدة عن هذا الجاسوس منذ القرن التاسع عشر، منها دراسة حديثة صدرت عام 2011 تحت عنوان «شولمايْستر: جاسوس نابوليون» لمؤرخ فرنسي مختص في تاريخ العلاقات الدولية، هو جيرالد أرْبوا الذي نعته بِ «جيمس بونْد» قبل الأوان، حيث يذكر مغامراته الخطيرة، مثلما يظهر في أحداث الحرب الفرنسية النمساوية حيث تخفَّى في جبَّة جنرال نمساوي وشارك في أشغال مجلس عسكري ترأسه إمبراطور النمسا فرانسوا الثاني.

ركز نابوليون جهوده على ألمانيا، ومحاربة بريطانيا على الصعيد الاقتصادي، بفرض حصار تجاري عليها بمقتضى ما يُعرف بمرسوم برلين (21 نونبر 1806). ما فشل فيه عسكريا في وجه بريطانيا عوَّضه اقتصاديا، إذ منع على البلدان الأوروبية الخاضعة له التعامل التجاري معها، بما فيها السكندنافية، خاصة وأنه كان يتحكم في موانئ الشمال الكبرى مثل هامبورغ وبريمن ولوبيك نتيجة الفوز في معركة أوستيرليز. وكان من نتائج هذا الحصار المعروف تاريخيا بِـ «الحصار القاري» الذي استمر إلى عام 1813: ركود التجارة في بريطانيا، وركود المعاملات البنكية، وركود الصناعة. ومن

الدراسات الأساسية التي همت هذا الموضوع، تلك التي أنجزها المؤرخ الفرنسي المختص في تاريخ بريطانيا، فرانسوا كروزيه، «الاقتصاد البريطاني والحصار القاري» (1999)، حيث بيَّن، انطلاقا من بحث كمِّي، كيف ظهرت آثار الحصار الاقتصادي على مجموع الاقتصاد البريطاني ابتداءً من عام 1808، حيث انخفض حجم المبادلات الخارجية بنسبة 25 بالمائة، وارتفع منسوب تجارة التهريب، وتزايد التضخم المالي، وتقلص الاستثمار في ميادين الصناعة، لتصل الأزمة الاقتصادية ذروتها عام 1810، إذ لم يستعد الاقتصاد البريطاني عافيته إلا ابتداءً من سنة 1812 لما قطعت روسيا والسويد صلاتهما مع فرنسا، إثر هزيمة نابوليون أمام الجيش الروسي في السنة ذاتها.

وبتسليط بعض الضوء على ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر، نجد أنها كانت مشتتة إلى إمارات ومناطق مستقلة بعضها عن بعض، لدرجة أن الفرنسيين كانوا يتحدثون عن ألمانيا بصيغة الجمع[1]. ومن أهم هذه الإمارات والمناطق: بْروسيا، وبافاريا، ورينانيا، وويسفاليا، والسّاكس، والتي لم تعرف الوحدة السياسية إلا مع بيسمارك عام 1871. لكن، رغم هذا الشتات، اشترك الألمان منذ القرن السادس عشر، قرن النهضة والإصلاح الديني، في اللغة (الألمانية)، وفي قيم كثيرة، في طليعتها المذهب البروتستانتي (اللوثيرية) وإعمال العقل والابتكار والتجديد. وهذه القيم هي التي أهلتهم لِلَعِب أدوار طلائعية في وقت لاحق.

(1) Les Allemagnes

في مرحلة أولى، سيطر جيش نابوليون على مجموعة من المناطق، خاصة منطقة بافاريا، وعاصمتها ميونيخ، ثم في مرحلة ثانية هجم على مملكة بْروسيا في الجهة الشرقية على الحدود مع بولندا. في البداية، قاوم ملك بْروسيا فريديريك غليوم الثالث المد النابوليوني، لكن الفوز كان من نصيب فرنسا، إذ سحقَ جيشُ نابوليون جيشَ فريديريك في 14 أكتوبر 1806 في معركة جِينا. وفي 27 من نفس الشهر دخل نابوليون مدينة برلين.

ومن جهة أخرى، عمل نابوليون على إعادة هيكلة خريطة أوروبا، إذ جمع شتات بولندا حول إمارة فارسوفيا، وجعل من بلجيكا بلدا قائما بذاته بعدما كان جزءاً من أراضي هولندا. لكن أثر نابوليون يظهر أكثر في ألمانيا، حيث عرفت تغيرات ترابية شاملة، وحيث نما شعورها القومي على مدى القرن التاسع عشر (الوحدة الألمانية 1871) على غرار ما حصل في بلدان أخرى التي نهضت فيها قوميات كثيرة. فقد جمع ألمانيا في 39 إقليما بعدما كانت مشتتة في 350 إقليما، حيث قضى على ما يعرف بِـ «الإمبراطورية الجرمانية المقدسة» وعوَّضها بِ «كونفيدرالية الرّاين» التي صارت تحت «الحماية الفرنسية»، وفرض على البلاد مدوَّنته القانونية، ابتداءً من فاتح يناير 1808، تحت مسمَّى «القانون الرِّيناني»، الذي عوَّض القوانين المتعددة التي كانت تسود في مختلف الأرجاء. لقد استفادت بْروسيا كثيرا من هذه الهيكلة الترابية الجديدة، إذ ضمت إليها عددا من

الإمارات الصغيرة التي ظهرت عليها البصمة القانونية الفرنسية، وحفزت بورجوازيتها وأرستقراطيتها المستنيرة على الاستثمار في العلم والصناعة، مما أهلها لتكون فيما بعد على رأس ألمانيا برمتها.

كان الألمان، الذين عانوا من الشتات السياسي، معجبين بالدولة القومية الفرنسية وبعظمة هذه الدولة التي جسَّدها نابوليون. الألمان الذي عرفوا البروتستانتية مع لوثر، والتنوير مع كانط، وروائع الأدب مع غوته، ورقي الموسيقى مع بيتهوفن، لم يعرفوا الدولة القومية الملتفَّة حول حاكم موحِّد وقوي. كانوا يعتقدون أن مملكة الفكر والفن أقوى من مملكة السلاح. غير أن الواقع أكد عكس ذلك. ويعبِّر هيجل تعبيرا واضحا عن هذا الأمر. بهذا الصدد، غالبا ما يذكر الباحثون ما كتبه هذا الفيلسوف في رسالة موجهة إلى صديقه نيتهامر بتاريخ 13 أكتوبر 1806، في وقت كان قد أتمَّ فيه مؤلَّفه «فينومينولوجيا الروح»: «رأيت الإمبراطور (نابوليون) وقد بدا كأنه روح العالم، رأيته خارجا من المدينة (مدينة جِينا) يتفقد الأحوال. ياله من إحساس رائع حقا أن يرى المرءُ شخصا مثل نابوليون في مكان بعينه وهو على صهوة جواده، يسود على العالم».

في دراسة تحت عنوان «نابوليون: بطل هيجلي»، يقول نيكولا بروسار: «ما معنى ذلك من زاوية فلسفة التاريخ؟... أن يُتِم فيلسوف الحداثة الكبير تحرير «فينومينولوجيا الروح» عشية دخول

نابوليون المدينة، هذا الحدث الذي لا يتكرر إلا كل مائة أو ألف سنة، معناه أن الأمر يرتبط، من منظور هيجلي، بطارئة تاريخية، التقى فيها التاريخ السياسي بالفلسفة: أنجز نابوليون على مستوى الفعل السياسي ما حقَّقه هيجل على مستوى الفكر، إذ أدرك نابوليون، فعليا، ذلك المطلق الذي عرضه هيجل معرفيا في «فينومينولوجيا الروح» (نيكولا بروسار: 1995).

ماذا يمكن أن نستنتج من هذه الصورة التي رسمها هيجل؟ في ذلك اليوم، لم يكن على هيجل أن يقرأ الصحف كما كانت عادته، لأن الحدث التاريخي، ذلك الراهن المطلق في التاريخ، كان يجري أمام أعينه مباشرة. والأكثر من ذلك، رأى هيجل نابوليون وهو يخرج من المدينة لتفقد الأحوال، لكن نابوليون لم ير هيجل. كان هيجل يعرف ما يفعله نابوليون، في حين كان نابوليون يجهل ما كان يعرفه هيجل. ولذلك، كان نابوليون يحقق من حيث لا يدري فلسفة التاريخ الهيجلية.

كان نابوليون، باعتباره أداةً للمطلق على مسرح العالم، قد صار بطلا للتاريخ الحديث. الدولة رافعة التاريخ، لكنها «دولة كونية ومتجانسة». في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ ألمانيا، قال هيجل في محاضرة من محاضراته بجامعة جِينا في متم عام 1806: «أيها السادة! إننا نحيا اليوم عصراً عظيم الشأن. عصرُ مخاضٍ حيث قفز

العقل إلى الأمام، وتجاوز شكله الملموس السالف واكتسب شكلا جديدا» (ألكسندر كوجيف: 1971). وإذا كانت حركة نابوليون تقضي بتحيينٍ ملموس للمطلق، فإنها كانت ذات سمة جمالية. ولذلك، كتب هيجل إلى صديقه نيتهامر: «إنه لإحساس رائع أن يرى المرء شخصا مثل نابوليون». لقد كانت حركة نابوليون بالفعل فوق المعتاد وعجيبة.

لم ير هيجل في نابوليون رجلا غازيا، كما عبَّر عن ذلك عددٌ من معاصريه من المثقفين، بل اعتبره مؤسسَ «الدولة الحديثة» وسيدَ «القانون العام والخاص» (نيكولا بروسار: 1995). وقد ظل هيجل يتتبع أخبار نابوليون حتى بعد الهزيمة أمام التحالف الأوروبي عام 1815، والنفي إلى جزيرة سانْت هِيلانة على يد الإنجليز، إذ أبدى رغبته في الاطلاع على المذكرات التي كتبها في هذه الجزيرة، وذلك على الرغم من الرقابة الصارمة التي فرضتها بْروسيا على هذه المذكرات التي كانت قد نُشرت عام 1823، وعلى كل الأدبيات المرتبطة بشخص الإمبراطور. فقد كتب في رسالة إلى أحد تلامذته في بلجيكا، بِيتْر فان غِيرتْ، ما يلي: «في بروكسيل، بحسب علمي، تمت طبعة جديدة لمذكرات نابوليون... هل بإمكانكم تكليف دار النشر بأن ترسل لي نسخة منها» (نيكولا بروسار: 1995).

ولا يسع المؤرخ المتتبع لردود الفعل الفكرية تجاه احتلال نابوليون لألمانيا إلا أن يستحضر أيضا مفكرا آخر، وهو يوهان فيشته الذي عاصر هذا الحدث وتفاعل معه. ففي «خطابات إلى الأمة الألمانية» المنشورة ببرلين عام 1808 في أجواء الهيمنة النابوليونية، دعا هذا الفيلسوف، المشبع بأفكار كانط وبمبادئ فلسفة الأنوار الفرنسية، الألمانَ إلى الالتفاف حول لغتهم الألمانية وأفكارهم وآدابهم للخروج من حالة الضعف السياسي والشتات في شكل إمارات وولوج مرحلة الدولة الواحدة والموحدة التي يتحول فيها الرعايا إلى مواطنين، والتي تسود فيها المسؤولية الجماعية وخدمة الجميع، والتي يكون فيها التعليم هو الرهان الرئيسي للنهوض بالعقل الذي من شأنه بلوغ الوعي بالذات والتأسيس لعصر العدالة.

لقد استمر أثر نابوليون في ألمانيا حتى بعد خروجه منها عام 1813 عقب ما يعرف بحروب التحرير (1811-1813). ويظهر هذا الأثر بالخصوص في شؤون الإدارة والقضاء، حيث عمل البْروسيون بتشريعات كثيرة مستلهمة من مدونة نابوليون المدنية التي استندت إلى مبدأ المساواة بين المواطنين، العزيز على ثورة 1789. هذا ما أوضحته دراسةٌ لمؤرخ ألماني تحت عنوان «نابوليون وتحول المؤسسات في ألمانيا». كان الأثر قانونيا، وكان قوميا أيضا. لأن هزيمة بْروسيا عام 1806 هي التي «أيقظت الوعي القومي للألمان بالمعنى السياسي» (هاينز أوتو سيبورغ: 1970)

إخضاع إسبانيا والنمسا وهولندا

باحتلال ألمانيا بلغ نابوليون أوج قوته. ففي ظرف ثلاث سنوات كان إمبراطور فرنسا قد انتصر على ثلاث قوى أوروبية عظمى: النمسا وبْروسيا وروسيا، وأصبح بالتالي سيد أوروبا بدون منازع، إما بطريقة مباشرة أو بواسطة الإمارات التابعة له، تحالفا أو خضوعا. كانت فرنسا قد شكلت، في بداية القرن التاسع عشر، مسرحا كبيرا للأحداث في أوروبا. يقول فيكتور هوغو في خطاب بالأكاديمية الفرنسية، بعد وفاة نابوليون بعشرين سنة: «سيطر نابوليون على جبال الألب والبرانس، وكوَّن دولةً قوية في قلب أوروبا وجعلها كالحصن المنيع الحاضن لمناطق أوروبية عدة. كل شيء كان هائلا ورائعا في هذا الرجل لأنه كان فوق أوروبا كمنظر فوق المعتاد» (هوغو: 1841). لكن إنجلترا ظلت عصية على هذا المسرح، ولذلك عمل كل ما بوسعه لمضايقتها من جهة الجنوب. هذا ما يفسر خطته القاضية باكتساح شبه الجزيرة الإيبيرية، ولاسيما إسبانيا في متم عام 1808.

أمام قوة الجيش النابوليوني استسلم ملك إسبانيا، شارل الرابع، وسلَّم العرش للإمبراطور، حيث صارت مملكته تحت الحماية الفرنسية بقيادة أخ نابوليون، جوزيف بونابَّرت، الذي استقر بمدينة مدريد، واستند إلى قوات عسكرية فاقت المائة ألف جندي.

في البداية، نجحت خطة نابوليون في مضايقة البريطانيين الذين تراجعوا تحت الضغط الفرنسي، لكنهم ما لبثوا أن انتظموا من جديد لصد الهجوم الفرنسي بتنسيق مع الإسبان الذين فضلوا الوقوف في وجه الغزاة بواسطة حرب العصابات.

في المحصلة، كانت حملة نابوليون على إسبانيا من دون نتائج تذكر في المدى البعيد، خاصة وأن البريطانيين كانوا قد تصدوا له هناك في أكثر من محطة، إذ لم تعمل المعارك على أرض إيبيريا إلا على تشتيت جهود الجيش الفرنسي هنا وهناك في أنحاء أوروبا. كانت انشغالات النمسا قد جعلت الإمبراطور يغادر إسبانيا عام 1809، حيث خاض معركة فاغرام بضواحي فيينا في يوليوز من هذه السنة، انتصر إثرها على الجيش النمساوي. أما إسبانيا، فقد ترك بها كتائب عسكرية لم تتمكن من حسم الأمور في نهاية المطاف، بل استُنزِفت استنزافا شديدا طلية السنوات الثلاث الموالية. فقد اعتبر تيريه لينتز، وهو أحد المختصين في مسار نابوليون، أن بداية تراجع قوة هذا الأخير، على المستوى الأوروبي، لا ترتبط بالهزيمة في روسيا عام 1812، بل بالاستنزاف الذي تسببت فيه الحملة على إسبانيا، حيث «لم يعد إمبراطور فرنسا يأخذ منذ هذا الوقت سوى القرارات الخاطئة» (تيريه لينتز: 2021).

كانت النمسا، في هذه المرحلة، مصدرَ قلقٍ بالنسبة لنابوليون على الرغم من تغلُّبه عليها في مناسبتين، عام 1796 في سياق الحملة

على إيطاليا، وعام 1805 لما كان في طريقه لاحتلال ألمانيا. كان النمساويون قد استجمعوا قواتهم وتحدَّوا الفرنسيين، إذ هجموا على إقليم بافاريا في شهر أبريل من سنة 1809، مما تسبَّب في معارك كثيرة استمرت حتى شهر يوليوز، حسم خلالها نابوليون الصراع لصالحه إثر الفوز في معركة فاغرام الشهيرة، والتوقيع على معاهدة فيينا، أو ما يعرف أيضا بمعاهدة شونْبرون (نسبةً للقصر الحامل للاسم ذاته)، في 14 أكتوبر من هذه السنة. بمقتضى هذه المعاهدة، اعترفت النمسا بهيمنة فرنسا على أوروبا وانضمت للحصار القاري المفروض على بريطانيا. كما اشترطت المعاهدة تقليص عدد جنود الجيش النمساوي وتأدية غرامة مالية بلغت أربعين مليونا من نقود الفلُوران[1]. وفي هذا السياق، الذي دعَّم أركان الإمبراطورية الأوروبية، بادر نابوليون إلى إلحاق عدد من الدول والأقاليم وجعلها تحت الحماية الفرنسية، ومنها هولندا التي صارت تابعة لفرنسا بموجب مرسوم إمبراطوري، وذلك ابتداءً من 13 يوليوز 1810. وقد ظلت هولندا على هذه الصورة لمدة ثلاث سنوات، تأثرت خلالها بقانون نابوليون الذي تبنَّته منذ عام 1809، وبفنون

(1) كانت معركة فاغرام قد أسالت مدادا غزيرا، في شكل دراسات وروايات، منها رواية الكاتب الفرنسي جيل لابوج «معركة فاغرام» (1986) التي لقيت نجاحا كبيرا عند صدورها، وحصلت على جائزتين أدبيتين في العام الموالي. وقد صوَّر جيل لابوج هذه المعركة مثل رقعة شطرنج تداخلت فيها الاستراتيجيات والدسائس ومشاهد الحب والحرب.

وآداب فرنسية كان قد شجع عليها لويس بونابَّرت، أخ نابوليون، لما كان على رأس البلاد ابتداءً من عام 1806[1].

وما يثير الاهتمام في الحديث عن غزو نابوليون لأوروبا، خاصة من جهة إسبانيا عام 1808، هو انعكاسات ذلك على المغرب، بحكم التماس الجغرافي بين البلدين. فقد كان لهذا الحدث عميق الأثر على العلاقات بين المغرب وفرنسا، خاصة وأن المغرب كانت تربطه علاقات تجارية عريضة مع بريطانيا. كان المغرب، على عهد السلطان المولى سليمان، قد صار يتتبع أخبار نابوليون منذ الحملة على مصر عام 1798، بل قبل ذلك لما استطاع هذا الأخير وهو في طريقه إلى مصر السيطرةَ على جزيرة مالطا وتحرير الأسرى المسلمين المحتجزين لدى فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، ومنهم عدد من الأسرى المغاربة، كانت من بينهم أسيرة تنتمي لأسرة الشرفاء، مما أثلج صدر السلطان وجعله يعبر عن «امتنانه وشغفه بالبطل الخالد بونابَّرت» (عبد الحفيظ حمان: 2017).

إلى حدود عام 1807، ظلت العلاقات بين نابوليون والمولى سليمان وديةً. وتشهد على ذلك الرسائل والهدايا وعبارات الوِد

(1) كان لويس بونابَّرت، أخ نابوليون، قد خلَّف ابناً هو شارل لويس بونابَّرت الذي تربَّى على أمجاد عمِّه إمبراطور فرنسا تحت مسمَّى شارل لويس نابوليون بونابَّرت المعروف في تاريخ فرنسا بنابوليون الثالث. وهو أول وآخر رئيس في الجمهورية الثانية، وأول رئيس دولة فرنسي يُنتخب بالاقتراع العام المباشر الذكوري في 10 دجنبر 1848. وبعد إعلان الإمبراطورية في 2 دجنبر 1852، يكون هو آخر عاهل للبلاد.

المتبادلة بين الطرفين، لكن، عقب احتلال جيش نابوليون لإسبانيا، صار الأمر محرجا للغاية بالنسبة للمغرب، خاصة في سياق الصراع بين فرنسا وبريطانيا. هذا ما عبَّرت عنه الرسالة التي بعث بها الإمبراطور إلى السلطان بواسطة الضابط بوريل بتاريخ 16 مايو 1808، والتي طلبت من «السدة العالية والمقام القوي والرفيع السلطان المولى سليمان»، كما جاء في مقدمتها، إعادة النظر في علاقاته التجارية مع البريطانيين: «نطالبكم بإبعاد الإنجليز عن سواحلكم»، وذلك بلهجة لم تخل من تهديد: «أما إذا فضلتم السير في الاتجاه المعاكس فسنكون مجبرين على وضعكم في صفوف أعدائنا» (عبد الحفيظ حمان: 2017). وعلى عادة المغرب، تاريخيا، في معالجة مثل هذه القضايا، خاصة وأن ميزان القوة بين ضفتي الحوض المتوسط كان قد اختل منذ مدة بسبب التقدم التقني والعسكري الذي تزايد مع التحولات الصناعية التي عرفتها عدة دول في أوروبا الغربية، حكَّم السلطان لغة الدبلوماسية وراهن على التوازنات الجيو-استراتيجية في المنطقة التي جعلت البلاد في مأمن من التدخلات الأجنبية، ولو إلى حين[1].

(1) كانت بريطانيا، في سياق صراعها مع فرنسا وحفاظا على امتيازاتها التجارية بالمغرب، قد ضخَّمت تهديد نابوليون للمملكة الشريفة. ويحكي الضُّعَيِّف، الذي عاصر أحداث هذه المرحلة، في مؤلَّفه «تاريخ الدولة السَّعِيدَة» أن «سلطان الفرنسيس وهو نابليون بنابارطي قهر أجناس النصارى وغلبهم، ولم يبق مخالفا عليه إلا اللنقليز، وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز وإلى طريفا والجزيرات وصنع قنطرة من اللوح ليقطع عليها» (تحقيق أحمد العماري، الرباط، 1986، ص 342)

المأساة الرهيبة

الحملة على روسيا

اعتبر نابوليون السيطرة على ألمانيا، وعلى مملكة بْروسيا، تمهيدا للذهاب بعيدا باتجاه الشرق للهجوم على روسيا. على مستوى القارة، خضعت كل البلدان لفرنسا، من إسبانيا إلى ألمانيا، ومن إيطاليا إلى بلجيكا، ومن هولندا إلى النمسا وبولندا، إذ لم تبق سوى روسيا التي كان يحكمها الإسكندر الأول. كان نابوليون يسعى إلى إقناع القيصر بقطع صلاته التجارية مع بريطانيا. لكن الرُّوس تخوفوا من السياسة التوسعية الفرنسية، فاستمروا في التعامل مع البريطانيين إذ فتحوا موانئهم للتجارة معهم. هذا ما دفع نابوليون إلى اتخاذ قرار الهجوم على روسيا، بالرغم من تحذيرات الدبلوماسيين الفرنسيين العارفين بشؤونها.

ولشن الحملة على روسيا، التي اعتبرها عددٌ من المؤرخين «حملةً مجنونة»، جهز نابوليون جيشا من 450.000 جندي. ويعرف هذا الجيش الذي تكوَّن من عشرين جنسية أوروبية بالجيش العظيم الثاني، تمييزا له عن الجيش العظيم الأول الذي خاض حروبا ضد النمسا وبْروسيا. كانت هذه الحرب من أشد الحروب دمارا ودموية في التاريخ الأوروبي. وقد اتخذت المعركة التي جرت بين الطرفين عام 1812 تسميتين مختلفتين: معركة موسكوفا بالنسبة للفرنسيين أو معركة بورودينو بالنسبة للرُّوس.

استطاع جيش نابوليون هزمَ جيش الإسكندر الأول، والدخول إلى موسكو. وكان رد فعل الرُّوس أن هجروا مدينتهم وأحرقوها وتركوا نابوليون في حيرة من أمره لا يعرف ما يصنع هناك. فكل القيادة الروسية انتقلت إلى مدينة سان بيترسبورغ. كان الشهر شهر أكتوبر، وكان الرُّوس يراهنون على مجيء فصل الثلوج التي من شأنها خلق عراقيل جسيمة لجيش نابوليون. وفي انتظار لحظة الحسم، التف الرُّوس حول الجنرال ميخائيل كوتوزوف. كان كوتوزوف يعرف نابوليون جيدا، إذ سبق أن خسر أمامه في معركة أوستيرليز. لكن هذه المرة، أحكم «جنرال الثلج والجليد»، كما يُذكَر في الأدبيات التاريخية، خطةً قضت بشن هجوم على الفرنسيين وقت تساقط الثلوج، في معركة حاسمة تعرف باسم «معركة بيريزينا»، فمات منهم النصف، أي ما يفوق 200.000 جندي من جراء القتال وقطع الإمدادات وتفشي البرد القارس.

انهزم الجيش الفرنسي في نهاية المطاف. كان كوتوزوف يرغب في إلقاء القبض على نابوليون، لكن هذا الأخير تمكن من الهرب صحبة ضباطه الكبار، والرجوع إلى باريس. لكن الأهم كان قد تحقق، إذ شكلت هذه الهزيمة بدايةً لتراجع قوة نابوليون في أوروبا. وفي المقابل، اكتسبت روسيا قيمة كبيرة في المنتظم الأوروبي، إيذانا باحتلالها لواجهة المشاهد التي عرفتها القارة فيما بعد.

كانت الحرب الفرنسية-الروسية فظيعة لا توازيها سوى الحرب على هيتلر إبان الحرب العالمية الثانية، عندما تكرر سيناريو الجوع والموت من شدة البرد. هذا ما تذكره الوثائق المحفوظة في مستودعات الوثائق بباريس وموسكو، وأيضا الرسائل والمذكرات التي تبقى مصدرا رئيسيا لفهم المآسي الكثيرة التي تسببت فيها هذه الحرب بالنسبة للعسكريين والمدنيين على السواء. في البداية، كان ضباط «الجيش العظيم» على قناعة كبيرة بجدوى هذه الحرب التي كان من شأنها، في نظرهم، أن تجلب إليهم المجد. يقول ضابط بولندي شارك في هذه الحرب، في مذكراته: «منذ الأحداث العسكرية الأخيرة، استعاد الضباط الشباب الثقة في نجمة نابوليون. حتى لو قال لهم: هيّا يا ضباط! عليكم بغزو القمر، استجابوا، وقالوا: سمعا وطاعة! لم نكن نحلم سوى بالمعارك والانتصارات.. لم نكن نخشى إلا مبادرة الرُّوس للسلم وتفادي القتال». كان ذلك مجرد حلم، لأن الواقع كان أقوى وأشد، وكانت المآسي أكثر مما تصوره هؤلاء الضباط، إذ سرعان ما واجه الجنود تضاريس مخيفة وطرقات وعرة وأجواء مناخية قاسية، وخيم العياء على الأجسام من شدة المشي وقلة النوم. ثم إن الأقوات صارت تقل مع مرور الوقت، ففتر الحماس، ولاح الموت في الأفق، حتى أن بعض الجنود بكوا وندبوا حظهم من غزارة الدم الذي ملأ ساحات الوغى. هذا ما ترويه المذكرات. نقرأ في مذكرة أحد حرس نابوليون: «كانت الأرض غارقة في الدم، وكنا نمشي فوق الجثث». كما تحكي هذه المذكرات فظاعات أخرى من

قبيل هذه المرأة التي كانت تطبخ الأقوات للجنود الفرنسيين، والتي وضعت رضيعا لم يجد ما يقتات به بسبب تحجر ثدي أمه من شدة البرد، فمات.

هذه الفظاعات الواردة في مذكرات ورسائل الضباط والجنود، والمذكورة في الكثير من المؤلَّفات ذات الصلة بالموضوع، هي التي تمكِّن من الكشف عن الوجه الآخر للمعارك، أو ما يسميه جون كِيغْن بالحرب منظوراً إليها من تحت (تشريح المعركة: 1976). هذا ما توقَّفت فيه ماري بيار ريه في كتابها الصادر عام 2012، بمناسبة مرور قرنين على الحدث: «المأساة الرهيبة: قراءة جديدة في تاريخ الحملة على روسيا».

يجد القارئ ضالته في هذا الكتاب، ذلك أن هذه المؤرخة الفرنسية، المختصة في تاريخ روسيا، والتي استندت إلى كل أصناف الوثائق، الروسية والفرنسية، تتبعت فصول الحملة وما رافقها من مآسي اجتماعية: اكتساح التراب الروسي، احتلال موسكو، إحراق المدينة، اليقين ثم الشك، بسالة الرُّوس وتراجع الغزاة، المعاناة والهلوسات، الجوع والبرد، الموت ثم الموت. هذا، لتخلُص إلى أن هذه الحرب شكلت «مأساة بشرية ضخمة». ومن جهة أخرى، شددت الباحثة على «نشأة الشعور الوطني الروسي»، كون أن أحداث شتنبر-أكتوبر 1812 كانت بحق منطلقا للأمة الروسية.

وبالإضافة إلى الدراسات حفَّزت الحملة على روسيا قلم وريشة الأدباء والفنانين من مختلف الأقطار. وتبقى رواية الأديب الروسي ليون تُولسْتُوي «الحرب والسلم»، الصادرة أول الأمر في شكل فصول بين عامي 1865 و1869، من أهم ما كُتب في هذا الشأن، إذ يعتبرها الأدباء والنقاد من أروع الروايات في تاريخ الأدب العالمي بفضل غنى المشاهد وواقعيتها والتوصيفات النفسيَّة الهائلة التي ميزت فقرات كثيرة من هذا العمل الأدبي.

الهزيمة الكبرى

واتيرلو ومؤتمر فيينا

يسمي الفرنسيون المعركة التي انهزم فيها نابوليون، يوم 18 يونيو من عام 1815، بِـ معركة «مون سان جون»، وهو موقع في بلجيكا (جنوب بروكسيل)، فيما ينعتها الألمان بِـ «التحالف الجميل». أما البريطانيون فيسمونها «واتيرلو»، وهو اسم القاعدة العسكرية التي كان يرابط بها جيش التحالف الأوروبي، بقيادة الجنرال البريطاني أرتير ويلنغتون. علما بأن هذا التحالف كان قد تكوَّن بمقتضى اتفاقٍ حصل في مؤتمر فيينا في مارس من نفس السنة.

وبغض النظر عن تفاصيل المعركة التي انهزم فيها جيش نابوليون، بخطة محكمة من جيوش التحالف المذكور، يمكن القول إنها أنهت سلسلة الحروب الطويلة والمدمرة التي جرت ببلدان عديدة من القارة الأوروبية، وأوقعت نابوليون في قبضة البريطانيين.

أسالت معركة واتيرلو الكثير من المداد خلال القرن التاسع عشر، بواسطة الفاعلين المباشرين (مذكرات)، والمؤرخين (مؤلَّفات في شكل دراسات توصيفية أو تحليلية)، وحركت أيضا ريشةَ الفنانين وقلمَ أدباء مشهورين، في مقدمتهم فيكتور هوغو الذي أبدع أشعارا في ديوانه «العقوبات» (1853) أثار فيها هذا الحدث، وإميل إريكمان الذي كتب عام 1865 رواية بعنوان «واتيرلو» مجَّد فيها «الواجب الوطني».

أما الدراسات الجامعية التي تناولت موضوع واتيرلو فلا تعد ولا تحصى، سواء تلك التي أنجزها الفرنسيون أو البريطانيون أو الألمان وحتى الأمريكيين. وقد أشرنا إلى بعضها في لائحة المراجع. وبرأينا تبقى دراسة المؤرخ البريطاني أندرو روبيرتس (واتيرلو، رهان نابوليون الأخير: 2006) من أهم هذه الدراسات من حيث النظرة إلى الأمور. يرى روبيرتس أن واتيرلو هي التي فتحت الباب أمام القرن التاسع عشر مع النظام الأوروبي الجديد الذي فرضه مؤتمر فيينا، والذي سهرت عليه بريطانيا. ومعنى ذلك، وفق مقاربته الأنجلوساكسونية الصرفة، أن هزيمة نابوليون وضعت حدا للقرن الثامن عشر الطويل الممتد ما بين الثورة الجليلة الإنجليزية (1689) وحدث 1815، حيث كانت قيم الفروسية ما تزال تحافظ على أهميتها في سلوك الجنود على الرغم من التقدم الحاصل آنذاك في ميدان المدفعية.

ومن الجانب الفرنسي، يمكن الاحتفاظ بهذه المعركة من زاوية الذاكرة كما أبانت عن ذلك دراسات كثيرة، انطلاقا من مفهوم «موقع الذاكرة» على النحو الذي يظهر في المؤلَّف الضخم الذي أشرف عليه بيار نورا «مواقع الذاكرة» (1984-1992). كيف تشكلت ذاكرة واتيرلو من خلال رصد ما خلَّفه الفاعلون السياسيون والاجتماعيون المرتبطون بالحدث؟ وكيف غذّى هذا الحدث هوية الفرنسيين بتأويله على طريقتهم الخاصة؟ من هذا المنظور، تظهر فائدة دراسة الحرب ليس من باب تفاصيل ساحة الوغى، بل بالأحرى بالتركيز على وظيفة التمثلات عوض الوقائع. ولذلك، تبدو الهزيمة وكأنها تبرر تساؤلات تكميلية ذات صلة بالتعبير عن ما يسميه أحد الباحثين، في دراسةٍ عن واتيرلو من زاوية التاريخ الثقافي، بِـ «الهزيمة المجيدة»، وذلك بالحفر في العلاقات الموجودة بين الهزيمة والمخيال الاجتماعي، ونشأة وتطور المشاعر الموصوفة بِـ «الوطنية» (جون مارك لارجو: 2006).

لقد ارتبطت معركة واتيرلو، سياسيا ودبلوماسيا، بمؤتمر فيينا. ففي سياق التراجع الذي عرفه نابوليون على الساحة الأوروبية، بعد نكسةِ روسيا، وتشكُّلِ تحالف رباعي بين بريطانيا وروسيا وبْروسيا والنمسا، والهجوم على فرنسا، سقطت باريس يوم 31 مارس 1814، واضطر الإمبراطور إلى التوقيع على التنازل عن الحكم يوم 4 أبريل في فونتينبلو جنوب العاصمة، حيث نُفي إلى جزيرة إلْبة الإيطالية

قبالة جزيرة كورسيكا، وعاد الملك لويس الثامن عشر إلى العرش. وفي 23 أبريل وقَّعت فرنسا على معاهدة سلَّمت بموجبها ما كانت قد احتلته في ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا. وبعد ذلك، دعا هذا التحالف إلى عقد مؤتمر دولي للبحث في سبل طي صفحة نابوليون وفتح صفحة جديدة كتبت بريطانيا عناوينها بحروف بارزة.

رسمياً، انطلق مؤتمر فيينا في 1 نونبر 1814، واستمرت أشغاله حتى التاسع من شهر يونيو 1815. وبين هذين التاريخين جرت أحداثٌ كثيرة، لكن تفصيل القول فيها من شأنه أن يزرع نوعا من الملل في ذهن القارئ، وإن كانت ذات أهمية بالغة لدرجة أن دراسات مستفيضة عديدة أُنجزت عنها. عموما يحتفظ المؤرخ بوقائع محدِّدة: ما يُعرف بِ «عودة المائة يوم»، وموقعة واتيرلو، والاستسلام. كان نابوليون، وقد نُفي إلى جزيرة إلْبة قد تمكَّن من الإفلات من منفاه، واستجماع قواه بالاعتماد على الجنود والضباط الذين ظلوا أفياء له وهو في طريقه من جنوب فرنسا إلى باريس، ما بين فاتح مارس والعشرين منه، وهي الفترة التي ينعتها المؤرخون بِ «رحلة الصقر». وانتهت هذه المغامرة، الأخيرة من نوعها، والتي امتدت على مدى مائة يوم، بالهزيمة في معركة واتيرلو في يونيو 1815 أمام قوات التحالف بزعامة بريطانيا، ثم بالاستسلام مرة أخرى وبصورة نهائية في يوليوز، حيث نُفي إلى جزيرة سانْت هِيلانة جنوب المحيط الأطلنتي.

كان مؤتمر فيينا حدثا سياسيا غير مسبوق في تاريخ أوروبا، كونه أكبر تجمع سياسي ودبلوماسي من نوعه إلى ذلك الحين. كانت الغاية التي سطرتها بريطانيا هي العودة بأوروبا إلى وضع ما قبل الثورة الفرنسية (1789) وتثبيت دعائم الأنظمة الملكية بالتأكيد على شرعية السلالات الحاكمة، وإحلال السلام في أرجاء القارة.

هيمن على المؤتمر ما يعرف بالتحالف الرباعي المنتصر على نابوليون: بريطانيا وممثلها الجنرال ويلنغتون، وروسيا وقيصرها الإسكندر الأول، وبْروسيا ووزير خارجيتها كارل هاردنبيرغ، والنمسا ووزير خارجيتها ميترنيخ. ومن الجانب الفرنسي حضر وزير الخارجية شارل موريس تاليراند. على الرغم من هيمنة التحالف الرباعي على المؤتمر ورغبة الدول الأوروبية إخضاع فرنسا، فإن هذه الأخيرة خرجت منه بأخف الأضرار، بفضل حنكة تاليراند الذي عرف كيف يمتص غضب هذه الدول حفاظا على وحدة بلاده الترابية.

كانت براعة تاليراند (1754-1838)، هذا السياسي المخضرم، الملقب بِ «العفريت الأعرج»، الذي اشتغل وزيرا للخارجية في حكومة نابوليون كما في حكومة لويس الثامن عشر التي مثّلها في هذا المؤتمر، حاسمةً بفضل ما أتقنه من فنون التواصل والإقناع والتهدئة. منذ بداية المؤتمر أبهر تاليراند كل ممثلي الأمم المشاركة. نقرأ في مذكراته ما قاله تمهيدا للمفاوضات: «أيها الحلفاء... لكن حلفاء

ضد من؟ لستم ضد نابوليون، فهو في منفاه، ولا ضد فرنسا، فالسلم سائد الآن، وبكل تأكيد ليس ضد ملك فرنسا، فهو ضامن أمد هذا السلم. أيها السادة، لنتكلم بصراحة، أمام المزيد من التحالف، أجد نفسي زائدا هنا... ومع ذلك، إن لم أكن هنا، فستفتقدونني بشدة. أيها السادة، ربما أنا الوحيد الذي لا يطلب شيئا. كثير من التقدير، هذا كل ما أريده لفرنسا... وأكرر قولي، لا أريد شيئا، لكنني أقدم لكم الكثير. حضورُ وزيرٍ يمثل لويس الثامن عشر هنا يكرس المبدأ الذي يتأسس عليه كامل النظام الاجتماعي... أما وأن تظهر فرنسا بمظهر المزعج لمداولاتكم، فهذا قد يعني أنكم لستم عادلين، لكنني أستبعد مثل هذه فكرة، لأننا نشعر جميعا بأن المسيرة الصِّرفة والحقّة وحدها تستحق المهمة النبيلة التي يتعين علينا القيام بها» (مذكرات الأمير تاليراند: 1891).

وتحكي أدبيات أخرى كتبها المشاركون في المؤتمر كيف أن وزير الخارجية الفرنسي استخدم أداة دبلوماسية أخرى لتلطيف الأجواء وتحقيق مكاسب هامة في وجه الدبلوماسية الشرسة للبْروسيِّين والرُّوس الذين قسَّموا بولندا فيما بينهم، ألا وهي سمعة الطبخ الفرنسي. فقد اصطحب معه إلى فيينا أحد الطباخين المهرة، وهو أنطوان كاريم[1]، الذي حضرَّ موائد فاخرة مكَّنت من تقريب

(1) كانت فرنسا مشهورة، منذ ذلك الحين، بفن الطبخ وآداب المائدة، مما أثار فضول الأرستقراطيات والبورجوازيات الأوروبية، خاصة وأن عدداً من الطباخين المهرة الذين كانوا يشتغلون قبل ثورة 1789 بقصور الملوك والأمراء، انتشروا في كبريات مدن أوروبا حيث أنشأوا مطاعم فخمة صارت ملاذا للطبقات العليا في المجتمع.

وجهات النظر وتفادي «سلام مهين» (تاريخ العالم في القرن التاسع عشر: 2020).

وبصفة عامة، كرَّس المؤتمر هيمنة بريطانيا على أوروبا والعالم، لكنه ضمن سلما نسبيا خلال القرن التاسع عشر، لم يختل اختلالا كبيرا إلا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين. فقد استغلت بريطانيا ظروف السلم النسبي هذه لمواصلة إقلاعها الاقتصادي وتقوية أسطولها الملاحي والتجاري وإحكام قبضتها على بقاع شاسعة من العالم (كندا وأستراليا والهند وإفريقيا الجنوبية). وبذلك، صارت الإمبراطورية البريطانية تتوفر على أكبر جيش في العالم، وأكبر أسطول ملاحي، وأكبر شبكة حديدية (11.000 كلم)، وأكبر اقتصاد باحتكار 90 بالمائة من الإنتاج العالمي من النسيج و75 بالمائة من إنتاج الفحم الحجري. كما صار بنكها القومي، الذي كان قد رأى النور عام 1694، يتوفر على أعلى المدخرات في العالم ويشرف على 700 مؤسسة مصرفية و600 شركة. حصل هذا بالموازاة مع النمو المتصاعد للمدن، وخاصة مدينة لندن التي بلغ عدد سكانها مليوني نسمة لتكون أكبر مدينة في العالم خلال القرن التاسع عشر.

6
قانون نابوليون

عقب سحقه للتمردات المعادية للثورة واحتلاله شمال إيطاليا وهجمته على مصر، فرض نابوليون نفسه في فرنسا كأقوى رجل في البلاد، فاستطاع إزاحة كل الشخصيات السياسية والسيطرة على الحكم ومراقبة الصحافة. وهذه الهيمنة الشاملة هي التي مكنته من مباشرة إصلاحات كبيرة في مجموع التراب الفرنسي، ابتداءً من عام 1800، على نحو صارم وبوتيرة قوية، إذ في ظرف عشر سنوات، أي إلى حدود عام 1810، تغير وجه فرنسا تغيرا شاملا، حتى أصبحت نموذجا يقتدى به في عدد من بلدان أوروبا الغربية، ليس فقط في مجالات الإدارة والقضاء والمالية والتعليم والعمران، بل أيضا في ميادين الثقافة والفنون، وذلك بتشجيع المسرح والموسيقى والرسم، وتقدير إبداعات الأدباء والشعراء، التي واصلت ما أنتجه فلاسفة الأنوار في القرن الثامن عشر. فالمسرح، مثلا، صار مدرسة حقيقية لتعلُّم المدنيّة، وإدماج عموم الناس في الأخلاقيات الجديدة التي أنجبتها الطبقة البورجوازية. ومن أهم هذه الإصلاحات:

إداريا، مرْكَز نابوليون السلطةَ بشدة، إذ عوَّض المنتخبين في الأقاليم والجهات بموظفين تابعين للسلطة المركزية في باريس،

ليفرضوا على الشعب الفرنسي قوانين صارمة من شأنها ضبط الأمور. كما أعاد تنظيم جهاز المالية العمومية فيما يتعلق بالضرائب، والخصوصية أيضا، لاسيما الأبناك وعلاقاتها ببنك فرنسا المركزي الذي أنشأه عام 1800، والذي انطلق بقدر مالي كبير جدا بالقياس إلى هذه المرحلة (ثلاثين مليون فرنك) حيث صار من اختصاصه إصدار الأوراق البنكية. ومن جهة أخرى، أعاد تنظيم المحاكم بفرض تراتبيةٍ ملزمة بين رجال القانون، وزيٍّ خاص بالقضاة والمحامين. ولذلك، يمكن القول إن الدولة المركزية في فرنسا، اليوم، موروثة عن دولة نابوليون.

صناعيا وعمرانيا، حفَّز الطبقة البورجوازية المنتصرة في الثورة الفرنسية على الاستثمار في الاختراعات التقنية القادمة من إنجلترا، وإنشاء المصانع، لاسيما مصانع الحديد والنسيج، وتطوير صناعة السفن، وتنشيط التجارة التي انتظمت في غرف تجارية ومحاكم للتجارة للفصل في الخلافات والنزاعات. ففي مدينة باريس وحدها، كانت غرفة التجارة قد سلَّمت، في عهد نابوليون، 30.000 من العقود التجارية. ومن جهة أخرى، اهتم نابوليون بتهيئة المدن الكبرى من حيث الإنارة والترصيف وتسمية الشوارع والأزقة، وتنظيم حركة السير والجولان. هذا بالإضافة إلى الاعتناء بالطرق التي تعد شريان الاقتصاد، إذ أنشأ مديريةً للطرق والقناطر ضمت 440 مهندسا اشتغلوا تحت إمرة المهندس لويس ماتيو مُولي الذي

كان يضع أمام نابوليون ميزانية الأشغال الكبرى المتعلقة بالطرقات الجديدة وإصلاح الطرقات القديمة والقناطر والقنوات الملاحية.

على مستوى المعرفة والتعليم والبحث العلمي، أسس عام 1808 «الوثائق الوطنية الفرنسية»، بعد حيازة قصر سوبيز بباريس وتخصيصه لإيواء الأرشيف. وكانت هذه الوثائق قد تعززت فيما بعد، عام 1821، بمؤسسة سهرت على إعداد مختصين في الأرشيف عبر تكوين في اللغات الكلاسيكية، والخطوط القديمة، وحفظ الوثائق وتحقيقها ونشرها. وهذه المؤسسة هي «المدرسة الوطنية للوثائق». وقد كان من نتائج ذلك أن تقاطعت مصلحة الدولة باهتمام المؤرخين. فالدولة وفَّرت الأرشيف ونظمته ووضعته رهن إشارة المؤرخين، ومن جهتهم دَرَس المؤرخون تاريخ هذه الدولة، مما يفسر غلبة التاريخ السياسي والدبلوماسي والعسكري، أو ما يسمى بالتاريخ الحدثي الذي هيمن على الجامعة الفرنسية، والجامعات الأوروبية عموما خلال القرن التاسع عشر.

وفي السنة ذاتها رأت «الجامعة الإمبراطورية» النور، بعد سنتين من قرار إنشائها. استندت هذه الجامعة، التي يسميها البعض بالجامعة النابوليونية، إلى مجموعة من البنود التي نصَّت، من جملة من نصَّت عليه، على التعليم العمومي والتكوين المرتبط بخدمة الدولة. وقد تميزت هذه الجامعة، التي زاوجت بين الدراسات الكلاسيكية والإنسانية والدراسات العلمية والتقنية، بصرامة الأساتذة

والإداريين وانضباط الطلاب، ليس فقط من حيث التكوين، بل أيضا على مستويات أخرى، مثل ضرورة ارتداء الزي الموحد، وإصدار العقوبات القاسية في حق الطلاب في حالة الإخلال بنظام المؤسسة، والتي كانت تذهب إلى حد الحبس لمدة سنة كاملة. لكن ما يحتفظ به الباحث، من زاوية الاهتمام بالعلوم الإنسانية، هو أن التاريخ صارت له كراسي خاصة، منذ تأسيس هذه الجامعة، حيث ضم هذا الصرح المعرفي الجديد، من بين ما ضمَّه، كليات عديدة للآداب والإنسانيات.

وعلى مستوى القاعدة، اهتم المسؤولون الفرنسيون، وفاءً لمبادئ الثورة الفرنسية، بالتعليم ومحو الأمية، خاصة في البوادي والمناطق النائية. هذا ما قام به فرانسوا بومرُول، أحد الإداريين المحنّكين الذين اعتمد عليهم نابوليون، إذ تعهد بإنشاء المدارس الابتدائية في كل مقاطعات البلاد. ومن جهة أخرى، شجع نابوليون التعليم الخصوصي لفائدة بورجوازية البلاد، لكنه في المقابل فرض على هذا التعليم ضرائب كبيرة وكثيرة.

ويبقى أهم إنجاز تركه نابوليون هو «المدوَّنة المدنيّة» أو «مدوَّنة الفرنسيين المدنيّة»[1]. وضعت هذه المدوَّنة، التي اعتُمِدت في 21 مارس 1804، والتي ضمت 36 قانونا و2281 بندا، تشريعات موحَّدة واضحة ومُركَّزة. وقد ألح نابوليون أن تُكتَب هذه المدوَّنة بلغة

(1) Le code civil des Français

بسيطة حتى يفهمها عامة الناس. وضعت المدوَّنة حداً للامتيازات الفيودالية، وعوَّضت القوانين والأعراف المحلية المتعددة التي كانت سائدة في الشمال والجنوب، منذ القرون الوسطى وخلال العهد البائد، وذلك من أجل تنظيم أفضل للحياة الاجتماعية يكون فيها الأفراد سواسية أمام القانون.

اعتمد نابوليون في صياغة القانون الجديد على رجل دولة محنك، مختص في القانون، وهو جون جاك ريجيس دو كامباسيريس. كان هذا الرجل، المنحدر من الجنوب الفرنسي والمشبع بأفكار مونتيسكيو (روح القوانين) وجان جاك روسو (التعاقد الاجتماعي) وجون لوك (الحكم المدني)، قد اشتغل على مشروع إعادة صياغة القوانين الجاري بها العمل في فرنسا منذ عام 1793، ووجد في بُعد نظر نابوليون فرصة سانحة لإحداث ثورة قانونية حقيقية. ولمدة فاقت العشر سنوات، وبفضل النقاشات الكثيرة والعميقة التي دارت حول هذا المشروع والمراجعات العديدة التي أُدخلت عليه، والتي ساهم فيها عدد من المحامين والسياسيين، خرجت المدونة إلى الوجود في حلَّة مركَّبة جمعت بين القانون الروماني وعُرْف باريس والتشريعات المحلية والمبادئ التي أعلنتها الثورة (الاحتكام إلى القانون، والمساواة المدنية، وقرينة البراءة) حيث غيَّرت مجرى الأمور في فرنسا وخارجها. كان رجال القانون والسياسة في فرنسا، خلال

هذه المرحلة، على قناعة تامة بأن المجتمع لا يمكنه التقدم من دون قوانين، حتى وإن لم تنل رضا الجميع.

همَّت هذه المدوَّنة، التي قضت بالفصل في النزاعات بين الأفراد والمؤسسات في إطار محاكم منظمة وفق تراتبية ملزِمة بين أعضاء الجهاز القضائي (رؤساء محاكم، قضاة، محامون)، قانون الأشخاص، وقانون الأملاك، وقانون العلاقات بين الناس. يقول أحد المختصين في قانون نابوليون: «هذه المدونة ثورية لأنها جعلت القانون يحذف كل المصادر التشريعية الموجودة إلى ذلك الحين، ولأن وحدة القانون حلَّت محل تعدد القوانين: قانون واحد لكل الفرنسيين كيفما كانت انتماءاتهم الاجتماعية» (جون لوكلير: 2002).

واكتملت هذه المدوَّنة بقوانين أخرى، مثل مدوَّنة التجارة (1807). انطلق هذا القانون التجاري من قانون 1673، أو ما يُعرف بمدوَّنة سافاري (نسبة لواضعه التاجر جاك سافاري) على عهد لويس الرابع عشر. وقد عمل قانون التجارة هذا على تنظيم المعاملات التجارية وأصناف الشركات، لاسيما فيما يتصل بالشركات الكبرى وعلاقاتها بالدولة في سياق تطورات مطلع القرن التاسع عشر المفتوح على الهيمنة الاستعمارية. ففي هذه السنة، أي 1807، أصبحت المدوَّنة المدنيّة تحمل اسم «مدوَّنة نابوليون».

كان قانون نابوليون واضحا ومركَّزا وعَمَلِيّا، إذ استخدمته عدة دول أوروبية وحتى الأمريكية خلال القرن التاسع عشر. في

ألمانيا، عام 1808، لما فرض نابوليون مدونته القانونية عقب السيطرة على البلاد، قال عنها الليبراليون التابعون للكنيسة اللوثيرية: «القانون الأكثر شهرة والأكثر فعالية من بين كل القوانين هو قانون نابوليون... قانون عام حقيقي يعوِّض المصالح الخاصة التي تستند إليها السُّنن والأعراف بتشريع يرمي إلى خلق وحدة فعلية وجديدة» (ميشال كيروتريت: 2004).

وفيما بعد، تبنَّت هولندا وبلجيكا عام 1838 هذا القانون، وإيطاليا أيضا عام 1868، ودول أخرى مثل اليونان وإسبانيا والبرتغال وبوليفيا وولاية لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية وإقليم كيبيك بكندا. ويرى المختصون في هذا الموضوع أن أكثر من سبعين دولة عبر العالم تعمل اليوم بمدونة نابوليون. وفي عام 2004، وبمناسبة مرور مائتي سنة على صدور هذه المدونة عقد الاتحاد الأوروبي بمدينة استراسبورغ مؤتمرا دوليا في موضوع «مدونة نابوليون وأوروبا: التأثير والحداثة» حضره سياسيون وباحثون في التاريخ والقانون والعلوم السياسية. وما يثير الانتباه في هذا المؤتمر ما قاله دومينيك بِرْبِين، وزير العدل بمجلس الاتحاد الأوروبي، حيث شدَّد على حداثة هذه المدونة ودورها في جعل الأوروبيين سواسية أمام القانون. يقول: «استخدم نابوليون القانون المدني كأداة للسياسة الخارجية... فرضها في ألمانيا وهولندا وإيطاليا بشكل خاص... كان ينوي أيضا تطوير مبادئ الثورة الفرنسية: الحرية

والمساواة المدنية والملكية الخاصة... كان تطبيق القانون المدني يعني إلغاء الامتيازات الإقطاعية وعلمنة العلاقات الاجتماعية.. .كما ينبع تأثير قانون نابوليون من حداثته العميقة... من خلال جعل جميع المواطنين سواسية أمام القانون، شكَّل خطوةً أساسية في تاريخ القانون في أعقاب فلسفة الأنوار» (مئتا سنة على المدونة المدنية: 2004).

ومما يدل على أهمية هذه المدوَّنة، ووعيا منه بأهميتها، ما قاله نابوليون في نهاية حياته، وهو في الأسْر لدى البريطانيين بجزيرة سانْت هِيلانة: «المجد الحقيقي الذي حققتُه، لا يكمن في الأربعين معركة التي انتصرتُ فيها، لأن هذه الانتصارات ستمحوها هزيمة واتيرلو، وإنما فيما سيظل خالدا، ألا وهي مدوَّنتي المدنيّة».

7
من المركز إلى المنفى أو سنوات العزلة
1821-1815

في 17 أكتوبر 1815 وصل نابوليون إلى جزيرة سانْت هِيلانة، بعد سبعين يوما من الإبحار، وكأن القدَر رسم له، في مسار حياته، الانتقال من جزيرة إلى أخرى: جزيرة كورسيكا، حيث وُلد وترعرع، وجزيرة إلْبة بين كورسيكا وساحل إيطاليا، حيث نُفي لأول مرة من طرف قوات التحالف في أبريل 1814، وجزيرة إيكس بساحل فرنسا الأطلنتي، حيث سلَّم نفسه للبريطانيين في يوليوز من السنة الموالية، عقب هزيمة واتيرلو. وأخيرا هذه الجزيرة الصخرية الصغيرة والمعزولة جنوب المحيط الأطلنتي بين إفريقيا وأمريكا الجنوبية، والتي يستحيل الهروب منها مهما كانت الظروف والأحوال. يقول والتير سْكُوتْ: «كل جزيرة هي سجن في حد ذاتها، لكن لما يتعلق الأمر بصعوبة الفرار منها، فلا وجود لجزيرة أخرى تضاهي سانْت هِيلانة» (حياة نابوليون: 1827).

كانت بريطانيا قد وفَّرت إمكانيات هائلة لإنجاح عملية نفي نابوليون: أسطول من عشر سفن حربية لمرافقة بارجة نورثم

بيرلاند التي نقلته، والتي كانت مجهزة أصلا بثمانية وسبعين مدفعاً، وأيضا لمراقبة حركة الملاحة جنوب المحيط الأطلنتي، هذا بالإضافة إلى ثلاثة آلاف رجل، ضباطا وجنودا، لحراسته. وينعت المؤرخون هذه العملية بالفريدة، بالقياس إلى تعبئة كل هذه الطاقات من أجل حراسة أسيرِ حربٍ واحدٍ، مع أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها.

فور وصوله إلى الجزيرة، أقام نابوليون لدى تاجر إنجليزي لمدة شهرين في انتظار تجهيز إقامته المعروفة باسم «لونْغوُود هاوْس»: مكتبةٌ، قاعةٌ للأكل، حمّامٌ من نحاس، غرفةٌ للنوم، صالةٌ لاستقبال الضيوف، جُدرانٌ تنخرها الرطوبة، وجِرذانٌ في كل الأماكن، رياحٌ قوية وأمواجٌ هائجة، لاسيما وأن موقعها كان ينظر رأساً إلى جنوب المحيط. إقامة «لا تليق بمقام ضابط من رتبة جنرال» على حد قول حاكم الجزيرة، هودسون لُويْ الذي كان قد أصرَّ على التعامل معه بهذه الصفة، وليس باعتباره إمبراطورا، مما شكل عاملا من عوامل التوتر الذي ساد بين الرجلين طيلة سنوات الأسْر. وتبقى حديقة الإقامة، الفسيحة والغنية بالنباتات والأزهار، والتي تلعب بها الرياح العاتية وتُشتَمُّ منها رائحة أمواج المحيط، هي المتنفس الذي روَّح عن نفسه.

كان المسكن كئيبا يشبه المنازل القروية الإنجليزية. فمن الإقامة بأفخم قصور أوروبا، وجد نابوليون نفسه مقيماً في محل متواضع، ومعزولاً عن عائلته: زوجته وابنه، وإخوته وأخواته، وأمه لايتيزيا التي حملت لقب «المدام الأم»، والتي كان يحلو لها الحديث عن ابنها، بنوع من الممازحة، بقولها أنه الوحيد في العالم الذي صفَعَ، وهو طفل كثير الحركة، من صاروا فيما بعد ملوكا وملكات، في إشارة إلى إخوته وأخواته الذين نصَّبهم، عندما أصبح إمبراطوراً، على رأس أمم أوروبا.

كُتب عن الإقامة الجبرية، التي قضى بها نابوليون ست سنوات إلى أن مات، الكثير من المؤلفات من مختلف الأصناف، منها كتاب جون بول كوفمان الصادر عام 1998 تحت عنوان «غرفة لونْغوُود السوداء»، الذي يعتبره البعض روايةً، فيما يعتبره البعض الآخر عملا أكاديميا. المهم في الأمر هو أن كوفمان هذا كان قد رحل إلى هذه الجزيرة وأقام بها مدةً من الزمن حيث جال بين أرجائها وبين أرجاء المنزل الذي أقام فيه نابوليون، هذا بالإضافة إلى اعتماده على مذكرات الضباط الإنجليز الذين كانوا في حراسته ومختلف الزوار الذين التقوا به هناك، مما مكَّنه من كتابة سرد يجمع بين حسن الحكي والصرامة في إعادة بناء الواقع التاريخي، للوقوف على كل تفاصيل حياة الأَسر: غضبٌ وتأملٌ وحنينٌ وندمٌ ومَللٌ وكآبةٌ وألمٌ ومرضٌ واحتضارٌ وموتٌ.

في هذه الإقامة الجبرية كتب نابوليون مذكراته، أو أملاها بالأحرى[1]. كان يقرأ كثيرا، وكان يتعلم اللغة الإنجليزية. كان يفضل قراءة كتب التاريخ والرحلات والروايات والمسرحيات. لما وصل إلى الجزيرة كان يتوفر على مكتبة من خمسمائة كتاب، ثم ما فتئت مكتبته تغتني بكتب أخرى، في شكل هدايا بالخصوص، حتى بلغت من المؤلفات الستين ألفاً، اعتنى بتنظيمها وترتيبها لويس إيتيان سان دوني، المعروف باسم المملوك علي، الذي بقي في خدمته حتى في أسره. كما كان يتتبع ما يحصل من أحداث في العالم من خلال الصحف التي كانت ترد إلى الجزيرة، وإن كانت متقادمة بالنظر إلى ما كانت تستلزمه من وقت للوصول إلى هناك.

وخارج أوقات القراءة واشتغال الذاكرة، كان يعتني بحديقته غاية الاعتناء، حتى أن حكومة لندن أمرت، بناءً على تقارير حاكم الجزيرة، بتوفير كل الأغراس التي يرغب فيها الإمبراطور ولو اقتضى الأمر جلبها من بلدان بعيدة. ومن وقت لآخر، كان يمتطي صهوة فرسه ويتجول في أرجاء الجزيرة تحت حراسة الضباط والجنود البريطانيين. لكن ما تقف عنده المذكرات والأدبيات

(1) كتب نابوليون مذكراته (*Mémorial de Sainte-Hélène*) في منفاه بواسطة سِكرتيره الكونت إيمانويل لاسْ كازْ الذي حرَّر ما كان يُـملَى عليه (2000 صفحة). وقد نُشرت هذه المذكرات عام 1823. وكان لاسْ كازْ هذا من رجاله الأوفياء، حيث ظل بجانبه حتى بعد هزيمة واتيرلو، فرافقه إلى جزيرة سانْت هِيلانة، خاصة وأنه كان كاتبا نبيها وعارفا باللغة الإنجليزية التي كانت ضرورية للتعامل مع الضباط الإنجليز المكلفين بحراسة الإمبراطور.

المرتبطة بالموضوع هو استقباله للكثير من الزوار في مقر إقامته. فقد كان يزوره الضباط الأوروبيون عموما، والبريطانيون ممن كانوا يكنِّون له التوقير والاحترام، وهم في طريقهم إلى الهند والصين أو عائدين إلى أوروبا، حيث يقدمون له الهدايا في شكل عطورٍ وخمورٍ وبُنٍّ ومؤلَّفاتٍ وشطرنجٍ. وبخصوص مسألة الاستقبال هذه، تروي التقارير أنه كان يفضل الاستقبالات الودية ويرفض اللقاءات ذات الصبغة الرسمية، كما حصل في بداية مقامه هناك، لما امتنع عن اللقاء بأعضاء وفدٍ مبعوث من دول التحالف المنتصر في واتيرلو للتأكد من أَسره، إذ اكتفوا بجمع ما يهمهم من معلومات من لدن مرافقيه وحراسه.

وعلى مستوى العيش، حرصت الحكومة البريطانية على توفير ما يلزم للأسير، شريطة مراقبته عن كثب حتى لا يتمكن من الفرار، كما سبق أن صنع في مارس 1815 لما هرب من منفاه في جزيرة إلْبة الإيطالية. ولذلك، لم يتردد البريطانيون في أن يؤَمِّنوا له حياةً كريمة نسبيا، على الأقل وفق ما يظهر في رسالة رسمية موجهة إلى حاكم الجزيرة: «سيكون من سوء التدبير السياسي حرمانه من ملذات المائدة. ينبغي أن يعيش في رفاهية كما يعيش الجنرال... أن يتوفر على طعام جيد، وسكن لائق، وأن يُعامَل على نحو يخفف عنه مأساته» (فيل كاستيل: 1855).

لكن المأساة كانت مدمِّرة. ابتداءً من عام 1817 صارت حالته الصحية تتدهور شيئا فشيئا بسبب مرض الكبد. لكن الذي أنهى حياته هو غمّ العزلة والحنين إلى ماضٍ ولَّى من غير رجعة، خاصة وأنه فَقَدَ مع مرور السنين كل أمل في الحرية والعودة إلى أوروبا.

عاش نابوليون حياة عاصفية، ومات في جو عاصفي. كان يحتضر وعاصفة هوجاء تضرب الجزيرة، حتى أنها اقتلعت كل أشجار حديقة لونْغوُود هاوْس. صوَّر شاطوبريان موت الإمبراطور هكذا: «وأخيرا، في الخامس [من مايو 1821] على الساعة الخامسة وتسعٍ وأربعين دقيقة مساءً، وسط رياح وأمطار وتلاطم الأمواج، سلَّم بونابَّرت الروح إلى بارئها، وقد نفث أقوى نفَس حياة حرَّك الطين البشري على الإطلاق. كانت آخر كلمات فاهت بها شفاه هذا الغازي: قيادة... جيش، أو قيادة الجيش... كان تفكيره ما زال تائها بين المعارك. ولما أغمض عينيه إلى الأبد، كان سيفه الصدئ نائما على جنبه الأيسر، والصليب موضوعا على صدره. كان هذا الرمز السلمي المنزَّل على قلب نابوليون قد هدَّأ خفقانه مثلما يقرع شعاع السماء أمواج البحر» (مذكرات ما وراء القبر: 1849).

مات نابوليون في الغم، لكنه مات شامخا، وقد امتلك أخيرا احترام أعدائه البريطانيين، وهم الذين حرَّضوا عليه أمم أوروبا، وحاولوا اغتياله، واعتقلوه، وربما سمَّموه في نهاية المطاف كما يعتقد عدد من المؤرخين والبيوغرافيين. لما توفي، حضر هودسون

لُويْ حاكم جزيرة سانْت هِيلانة إلى مقر إقامة الإمبراطور لمعاينة موته، وقال للضباط المرافقين له: «أيها السادة! لقد كان أكبر عدو لإنجلترا، ولي أنا أيضاً، لكنني أغفر له كل شيء، إذ ما على المرء إلا أن يشعر بالحسرة على وفاة رجل عظيم مثله». كان هودسون لُويْ قد عامَل نابوليون معاملة لا تليق بمقام إمبراطورٍ، وهو يتولَّى الإشراف على حراسته، وكانت أخبار هذه المعاملة تصل إلى لندن، حتى أن عددا من المثقفين والسياسيين البريطانيين توجهوا باللوم لحاكم الجزيرة لما عاد إلى العاصمة بعد انتهاء مهمَّته، ومنهم والتير سْكُوتْ الذي عاتب لُويْ ونعته بالرجل القاسي والسريع الغضب، والكثير من أعضاء الحزب الليبرالي الذين استغلوا قساوة الأسْر هذه لشن هجوم سياسي على الحزب المحافظ الحاكم في ذلك الإبان.

دفن نابوليون بجزيرة سانْت هِيلانة حيث مكث هناك لمدة تسعة عشر عاما، قبل أن ينقل رفاته في 15 دجنبر 1840 إلى باريس حيث دفن بمقبرة ليزانْفَلِيد، وحيث أحيا الناس ذكره واسمه من جديد، وحيث صار رمزا عظيما من رموز الأمة الفرنسية.

مات نابوليون، لكن ظِلَّه الثوري بقي فاعلا في أوروبا وحتى في أمريكا، إذ غادر فرنسا عدد من الضباط الفرنسيين الذين ظلوا أوفياء لمبادئه وسياسته، وانتشروا في إيطاليا وإسبانيا واليونان مساهمين في المعارك التحررية والقومية، وفي أمريكا أيضا، حيث

انخرطوا كمرتزقة في جيوش أمريكا اللاتينية، وشاركوا في حروب الاستقلال ضد المستعمرين الأوروبيين.

وعلى الرغم من تعاطف الكثير من الفرنسيين مع نابوليون الذي رمى به الإنجليز في جزيرةٍ نائية، حيث رأوا فيه ضحية تحالف المونارشيات الأوروبية وغدر المعاونين الأقربين، وحيث نسجوا حوله إشاعات العودة إلى فرنسا وتخليصها من حكم الأرستقراطيين وسلالة البوربون، فإن جون تولار، هذا المؤرخ البارز المختص في تاريخ نابوليون، يرى أن أَسْطرة شخصيته في فرنسا لم تتضخَّم إلا مع «مذكرات سانْت هِيلانة» التي نشرها لاسْ كازْ عام 1823. قبل هذا التاريخ، لاسيما عقب هزيمة واتيرلو، كانت قد سادت بالأحرى صورة الرجل الدموي الذي ماثل نيرون الروماني وأتيلا الهوني، والتي روَّج لها أعداؤه، سواءً كانوا من الملكيِّين، أو حتى من الثوريين الذين اعتبروه مغتصبا للتجربة الجمهورية المرتبطة بثورة 1789. وحتى موته عام 1821 لم يشكل حدثا بقدر ما كان مجرد خبر تلقَّاه الناس بنوع من البرود. ومعنى ذلك، برأي جون تولار، أن الهالة التي اتخذتها شخصية نابوليون اقترنت بهذه المذكرات التي كشفت عن الكثير من التفاصيل ذات الصلة بعدد من الصراعات والقرارات، والتي جعلت الناس يحنُّون إلى «عصر الإمبراطورية الذهبي» الذي ساد فيه الأمن والرخاء، والذي انتفخ فيه كبرياؤهم نتيجة الانتصارات العسكرية الكثيرة التي لم يكف الضباط والجنود

القدامى عن تمجيدها وتخليدها (جون تولار: 2021). فظلت شخصيته، منذ ذلك الحين، حاضرة على الدوام في ذاكرة الفرنسيين ومخيالهم، ومذكورة كلما ظهرت على الواجهة أحداث كبرى، طيلة القرن التاسع عشر، وحتى مطلع القرن العشرين، مثل ثورة 1848 التي حملت ابن أخيه نابوليون الثالث برمزيته البونابَّرتية إلى مقدمة المشهد السياسي الفرنسي، والحرب الفرنسية البْروسية (1870-1871) والحرب العالمية الأولى (1914-1918)، حيث اعتمد القادة صورة الإمبراطور لاستعادة الأمجاد واستنهاض الهِمم وتبرير القتال. في هذا السياق، كتب الأديب شاطوبريان الذي كان من أشد معارضي نابوليون: «شغَل نابوليون العالـمَ وهو حي، وامتلكه وهو ميت... ينتمي نابوليون بقوة إلى الهيمنة المطلقة. بعد أن عانينا من استبداد شخصه، علينا الآن أن نعاني من استبداد ذاكرته. لكن استبداد الذاكرة أكثر وقعا من استبداد الشخص» (شاطوبريان: 1849).

في واقع الأمر، كل النقاشات والتمثلات والدراسات المرتبطة بنابوليون، والتي روَّج لها المثقفون والسياسيون والضباط وعامة المواطنين الفرنسيين، منذ نفيه إلى سانْت هِيلانة ووفاته، أكدت إحساسا أساسيا، كون أن فرنسا صارت عظيمة في المنتظم الأوروبي بفضل هذا الرجل. صحيح، أن فرنسا كانت هي بلد الأنوار وثورة 1789، لكن الذي دعَّم هذا الصِّيت هو نابوليون، لأنه واصل فكر الثورة ووضع أسسها على أرض الواقع، وخاصة

ما تعلق منها بالمساواة المدنية التي شكلت صلب مدونته المدنية، والتي عملت بها بلدان أوروبية كثيرة خلال القرن التاسع عشر. وحتى مذكراته التي ساهمت في تشييد أسطورته كرجل دولة فوق المعتاد، أقامها على لازمة رئيسية، كون أن الأمم المتحالفة ضد فرنسا لم تكن في مواجهة نابوليون بقدر ما كانت في مواجهة الثورة. فإذا كان نابوليون ينتمي إلى القرن الثامن عشر، من حيث تكوينه ومبادئه وتوجهه، فإنه فتح القرن التاسع عشر على مصراعيه حيث أسس لممارسات سياسية جديدة، وأيقظ قوميات عديدة.

ونختم درس نابوليون هذا بما قاله في مذكراته، وهو يحاور المؤرخ:

«سيكون المؤرخ الفرنسي مجبرا للحديث عن إمبراطوريتي. إذا كان نزيها سيمنحني المكانة التي أستحق... لأن الوقائع تتكلم وتسطع سطوع الشمس. لقد تغلبتُ على الفوضى... وأنقذتُ الثورة وأعدتُ الاعتبار للشعب... ودفعتُ بحدود المجد إلى أبعد مدى! كل هذا يستحق الذكر! كيف للمؤرخ ألاّ يدافع عني؟.. قد يعاتبني على استبدادي، لكن ألم يكن هذا الاستبداد ضروريا؟ وقد يآخذني على تضييقي للحرية... لكنه سيقدم الدليل على أن الحرية المفرطة والفوضى والفتن كانت على الأبواب. وقد يتهمني بشغفي للحرب؟ لكنه سيبيِّن أنني كنت دائما محط هجوم... باختصار هذا هو تاريخي..» (مذكرات سانْت هِيلانة: 1823)

ملحق
نصوص

النص رقم 1

رسالة نابوليون إلى المصريين إثر دخوله الإسكندرية[1]

1798

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه.

من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته

يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة[2] يفسدون في الإقليم الحسن

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1998، ج 3، ص 4-6.

(2) الأبازة والجراكسة: الأبازة هم المماليك المجلوبون من بلاد القوقاز، والجراكسة هم المماليك المجلوبون من بلاد جركس شرق البحر الأسود (المحقق، هـ 6، ص 4).

الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون قد قيل لكم: إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم.

وقولوا أيضاً لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم.. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها. وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أَزَال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية[1] وأعيان البلد قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية[2] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه. ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم.

طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء...

---

(1) الجربجية: مفردها جوربجي، وتعني ضابط انكشارية (المحقق، هـ 1، ص 5).

(2) الكواللرية (les cavaliers): طائفة فرسان دينية تُعرف باسم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، كانوا يحكمون جزيرة مالطا إلى أن قضى عليهم نابوليون وهو في طريقه إلى مصر.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم. وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً. وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ: أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريراً بمعسكر إسكندرية 12 شهر سيدور[1] سنة سِت من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في آخر شهر محرم سنة 1213 هجرية..

---

(1) سيدور أو ميسيدور (Messidor): هو تقويم شهري من شهور التقويم الجمهوري الفرنسي الذي عمِل به الفرنسيون عقب الثورة الفرنسية، من 1792 إلى 1806، ويوافق الفترة الممتدة من 19 يونيو إلى 18 يوليوز من التقويم الغريغوري.

النص رقم 2
رسالة هيجل إلى نيتهامر عن نابوليون[1]
جِينا: 13 أكتوبر 1806

قَلِقتُ كثيرا بشأن الإرسال البريدي لمخطوطتي[2] يومي الأربعاء والجمعة الماضيين، هذا ما تلمسونه من خلال تاريخ كتابة هذه الرسالة. بالأمس مساءً، ميقات غروب الشمس، رأيتُ الدوريات الفرنسية تطلق النار من جهتَيْ غيمبينباشتال وفينزيرلا، حيث طُرِد البْروسيون من هذه البلدة الأخيرة خلال الليل. وقد دام إطلاق النار إلى ما بعد منتصف الليل، واليوم ما بين الساعة الثامنة والتاسعة، دخل المشاة الفرنسيون المدينة، وبعد ساعة دخلت القوات النظامية. لقد عاش الناس خلال هذه الساعة حالة من الجزع، خاصة وأنهم لم يكونوا على بيِّنة من حقوقهم، حسب إرادة الإمبراطور، بالقياس إلى هذه القوات، أي عدم الانصياع لطلباتهم،

(1) Hegel, *Correspondance*, t. I, traduit de l'allemand par Jean Carrère, Gallimard, Paris, 1962, pp. 114-115.

كان فريدريك إيمانويل نيتهامر (1766-1848) فيلسوفا من فلاسفة الدين الألمان وصديقَ هيجل منذ أيام الدراسة في كلية اللاهوت بمدينة توبينغن.

(2) يتعلق الأمر بكتاب «فينومينولوجيا الروح» الذي صدر سنةً بعد حدث دخول نابوليون إلى ألمانيا.

إلا فيما يتعلق بما هو ضروري وبكل سلام. فالعديد من الناس وجدوا أنفسهم في حيرة من أمرهم من جراء بعض السلوك المتهور أو بسبب قلة الحذر. ومع ذلك فقد سلِمت، رغم هذا الخوف، السيدة أخت زوجتك، وكذلك الأمر بالنسبة لمنزل دوديرلاين. وقد توسَّلت إليَّ، لما تكلمتُ معها هذا المساء عند مغادرة مكتب البريد، بأن أكتب إلى زوجتك وإليك أيضا، كونها تقيم الآن بزنقة الضباط. لقد رأيت الإمبراطور (نابوليون) وقد بدا كأنه روح العالم، رأيته خارجا من المدينة (مدينة جِينا[1]) يتفقد الأحوال. ياله من إحساس رائع حقا أن يرى المرءُ شخصا مثل نابوليون في مكان بعينه وهو على صهوة جواده، يسود على العالم. أن يحدُث كل هذا التقدم في العمليات من يوم الخميس إلى يوم الأحد، فهذا يعني أن وارء ذلك رجل فذ، لا يمكن إلا الإعجاب به. وكما سبق أن قلتُ، كل الناس يتمنون حظا سعيدا للجيش الفرنسي، إذ يتضح الفرق بجلاء بين ضباط نابوليون وآخر جندي في صفوفه من جهة، وخصومه البْروسيين...

(1) كان هيجل قد درَّس بجامعة جينا (Iéna) ما بين 1801 و1807.

النص رقم 3

نابوليون والمجتمع الألماني[1]

لم يضع سقوط نابوليون حداً لتأثيره في ألمانيا فيما يتصل بالمؤسسات. في منطقة بادْن، ظل قانون نابوليون ساري المفعول حتى عام 1900. وفي رينانيا، وبشكل جزئي في ويستفاليا أيضا، أبانت المؤسسات النابوليونية عن فاعليتها طيلة القرن التاسع عشر، سواء في ميدان الإدارة أو على مستوى التطور القانوني.

عام 1815، لما ألحقت بْروسيا أقاليم رينانيا وويستفاليا، لم يتم إدخال قانون البلديات، الذي بلوره هاينريش ستاين، في إدارة الجماعات المحلية. بدل ذلك، حافظ الألمان على نظام «العُمودية» النابوليوني كشكل إداري رئيسي، إذ بقي حيا في البلديات الرينانية والويستفالية...

لقد ظلت المؤسسات القضائية الفرنسية سارية المفعول في إقليم رينانيا البْروسي خلال القرن التاسع عشر. هذا، لأنه على

---

(1) Heinz-Otto Sieburg, « Napoléon et la transformation des institutions en Allemagne », *Revue d’histoire moderne et contemporaine*, t. 17, n° 3, 1970, pp. 911-912.

الضفة اليسرى لنهر الراين، لم يُعمَل عام 1815 بِ «المدوَّنة العامة للولايات البْروسية»، إذ احتفظ الألمان بخمسة قوانين من مدوَّنة نابوليون، خاصة منها المدونة المدنية التي لم تعوَّض في منطقة بادْن إلا في سنة 1900، بواسطة المدونة المدنية الألمانية. لكن، خلال هذه الفترة، كان القانون الألماني قد تشبع بقوة بالمبادئ القضائية الفرنسية، لاسيما عقب ثورة 1848 عندما احتل المواطنون الرِّينانيون عددا من الإدارات بالوزارات البْروسية. ويفسِّر هذا الأمر كيف عمِل وزير العدل سيمانس، المزداد برينانيا، على إصلاح القانون الجنائي البْروسي، حيث استطاع إدخال مبدأ مساواة جميع المواطنين أمام القانون، وتفاصيل أخرى مستلهمة من «مدونة» نابوليون، في القانون الجنائي البْروسي الجديد. وبهذه الطريقة، أثَّرت الهيمنة الفرنسية على تطور القانون الألماني تأثيرا حاسما، وبالتالي على تشكيل المجتمع الحديث في ألمانيا.

في «ظاهرة نابوليون»، أخضعت فرنسا الشعب الألماني من دون أن يشعر هذا الأخير بذلك على الفور. كان اعتزاز الألمان بأنفسهم، في مطلع القرن التاسع عشر، بالقياس إلى ثقافتهم الفنية والفكرية الراقية، قد جعلهم يشعرون بالتفوق على كل الأمم. كانوا على يقين بأنهم يمتلكون مناعة قوية، كون أن مملكة الفكر لا يمكن غزوها بالوسائل العسكرية. لم ينشأ الحس القومي الألماني إلا عقب هزيمة بْروسيا عام 1806. هذا ما عبَّر عنه يوهان هالير [في دراسة

منشورة سنة 1930 تحت عنوان «ألف عام من العلاقات الفرنسية الألمانية»] بالقول: «في الأصل، فرنسا هي التي أيقظت الوعي القومي للألمان بالمعنى السياسي. اقتداءً بالفرنسيين، تعلَّمنا ما يعنيه الوطن والأمة في حياة الشعب. إننا ندين لهؤلاء بمثال الإدارة الحديثة التي تعلَّمَتْها المحافظات الألمانية الشائخة». لقد طوَّر القرن التاسع عشر التأثيرات العميقة التي مارستها الثورة في كل مناحي الحياة، كما أبان عن نجاح محاولات الحقبة النابوليونية لنقل التيارات العقلانية والمساواتية النابعة من الثورة الفرنسية إلى ألمانيا.

النص رقم 4

رسالة نابوليون إلى السلطان المولى سليمان[1]

16 مايو 1808

إلى السدة العالية والمقام القوي والرفيع السلطان المولى سليمان

أخي وصديقي العزيز، تحياتي وبعد،

نحن دائما نمنح قيمة عليا لحالة السلم والصداقة التي تجمع جنابكم بفرنسا. وحاليا، وبعد أن تنازل لنا ملك إسبانيا عن عرشه، نجد أنفسنا في مكانة ينبغي أن نعبر من خلالها عن محبتنا وصداقتنا الدائمة لجنابكم.

ستحافظ إسبانيا على استقلالها ووحدتها الترابية، ويود الملك الحالي لإسبانيا تمتين علاقات حسن الجوار معكم. ومن جهتكم، ينبغي أن تعبروا لنا ولإسبانيا عن نيتكم في المحافظة على هذه العلاقة وحسن الجوار والصداقة الخالصة.

---

(1) عبد الحفيظ حمان، **المغرب وفرنسا زمن نابليون بونابرت 1798-1815 قضايا ونصوص**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2017، ص 184-185.

يتباهى الإنجليز بالعلاقة المتينة التي تربطهم بكم والأفضلية التي تمنحونها لرعاياهم الذين يجدون المأوى والمساعدة في كل موانئ المغرب. وانطلاقا من أراضيكم يتم تزويد جبل طارق بكل أنواع المؤن التي تحملها سفن رعاياكم، وأخيرا استوطن الإنجليز في جزيرة تابعة لسيادتكم ومنها عقدوا العزم على الإبحار نحو مدينة سبتة. إن مثل هذه الأوضاع نعتبرها غير متلائمة مع حسن الجوار الذي نرغب في المحافظة عليه معكم.

نطالبكم بوضع حد لكل هذه التصرفات، وبالتالي لا تسمحوا لهذا الاحتلال الذي فرضه الإنجليز في جزيرة بيريخيل[1] أن يمتد لمدة أطول ومن خلاله يهددون مدينة سبتة التي دخلت تحت ممتلكاتنا.

كما نطالبكم بإبعاد الإنجليز عن سواحلكم لأنهم يخططون لتدمير تجارتكم حتى يسيطروا ويحتكروا لوحدهم تجارة البحر الأبيض المتوسط ويجنون منها لوحدهم الأرباح الطائلة. أما إذا فضلتم السير في الاتجاه المعاكس فسنكون مجبرين على وضعكم في صفوف أعدائنا.

أحيطكم علما أن قواتنا تسيطر على كل الأراضي من بحر البلطيق إلى بوغاز جبل طارق. وحاليا انضمت إلى جانبنا القوات الإسبانية، وبفضل هذه المكانة العسكرية القوية التي نتوفر عليها

(1) Perejil (جزيرة ليلى)

يمكننا تدمير كل من يقف ضدنا أو الانتقام من الذين يلحقون الأضرار بنا، فكونوا على دراية من أمركم وانهجوا الحياد المطلق.

غير أننا، باسم فرنسا وإسبانيا، نعبر لكم دائما عن رغبتنا القوية في المحافظة على علاقات الصداقة التي باستمرارها سنمنح لرعاياكم كل الواجبات والحقوق والحماية في إمبراطوريتنا، وستكون تجارتهم في مأمن من كل اعتداء حتى تظل رافدا لأرباح وغنى مملكتكم.

تقبلوا في الأخير أسمى عبارات التقدير والاحترام، وندعو الله أن يحفظ مقامكم العالي

كتب في القصر الإمبراطوري بمدينة بايون يوم 16 مايو 1808.

(أرشيفات الشؤون الخارجية الفرنسية)

النص رقم 5
تولستُوي واصفاً نابوليون[1]

كان الإمبراطور متقدماً ماريشالاته قليلا ممتطياً صهوة جواد عربي أشهب، مرتدياً المعطف الأزرق الغامق الذي خاض به حملة إيطاليا. كان يراقب بصمت المرتفعات التي تبدو كأنها ناتئة من خضم الضباب، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البعد. وكان يُصيخ السمع إلى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأة في الوادي. لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لا يزال هزيلاً حينذاك، بل ظلت عيناه البراقتان تحدقان إلى نقطة واحدة. لقد صدق حدسه ووقع ما كان ينتظره. كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر إلى الوادي باتجاه المستنقعات بينما راح الجزء الآخر يتهيأ لإخلاء مرتفع براتزن، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه. كان يتطلع إلى ذلك المرتفع تطلعه إلى مفتاح العملية الحقة. يرى الوحدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب، فتختفي إحداها في إثر الأخرى في محيط الظلمة الكثيف

(1) ليو تولستوي، **الحرب والسلم**، ترجمة فارس غصوب، دار الفارابي، بيروت، 2016، المجلد الأول، ص 509-511.

الرابض في أعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية براتزن. وكانت المعلومات التي تلقاها مساء أمس، والضجة التي أطلعه خفراؤه في الخطوط الأولى عليها، وقعقعة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي أمكن تميزها في صفوف الروس، كل ذلك كان يؤكد له أن الحلفاء يعتقدون أنه بعيد عنهم، ويثبت أن الفيلق الذي كان يتحرك قرب براتزن ليس إلا وسط الجيش الروسي، فتأكد أن هذا الوسط كان شديد الضعف حتى ليعجز عن مهاجمته بنجاح. مع ذلك لم يعطِ الأمر بالبدء بالهجوم.

ذلك اليوم كان يوما مجيدا بالنسبة إليه، كان يوم تنصيبه الأول إمبراطوراً لفرنسا. اختلس سويعات نوم قليلة ثم نهض بعدها نشيطا خفيف الحركة. وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق الذي بدا له فيه كل شيء ممكناً وكل شيء ناجحاً، اعتلى بونابَّرت صهوة جواده وقصد إلى ساحة المعركة. أما الآن، فقد كان جامدا شاخص العينين إلى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه، ووجهه الجامد يشع بالاطمئنان، وبسعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعاً من عشيقاتهم. وكان ماريشالاته منتظمين صفاً وراءه لا يجرؤون على تعكير سكونه. كان ينظر إلى هضبة براتزن تارة وتارة أخرى إلى الشمس التي كانت تخترق الضباب.

وعندما انقشع الضباب عن الشمس تماما، وأنارت هذه البرية بضيائها الوضاء، خلع نابليون قفازه عن يده البيضاء، وكأنه ينتظر تلك اللحظة بالذات، لإصدار الأمر إلى ماريشالاته ببدء الهجوم. فأسرع هؤلاء وضباطهم المساعدون في أنحاء مختلفة لإدارة العمليات. لم تمض دقائق معدودة، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسية تتجه بسرعة نحو هضبة براتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتنحدر إلى أعماق الوادي، نحو اليسار!

النص رقم 6

شاطوبريان ناقداً نابوليون[1]

كلمات عبثية! أشعر بتفاهتها أكثر من أي شخص آخر. من الآن فصاعدا، تعتبر كل ملاحظة، مهما كانت معتدلة، تدنيساً. يستلزم الأمر شجاعةً لتحمل صرخات العامّة، ولكي لا يخاف المرء من أن يُنعَت بالغباء والعجز عن فهم عبقرية نابوليون والشعور بها، لا لشيء سوى لأنه، في خضم الإعجاب الحي والحقيقي المعبَّر عنه، لا يمكن مع ذلك ذكر عيوبه. العالَـم مِلكٌ لنابوليون. ما لم يستطع هذا الرجل المدمِّر إخضاعه، انتزعته شهرته. شغَل العالـمَ وهو حي، وامتلكه وهو ميت. لقد صِحتم ملء فمكم: تمر الأجيال ولا تنصت إليكم. يقول العصر القديم لظل ابن بريام (ملك طروادة الأسطوري): «لا تحكم على هيكتور من خلال قبره الصغير: الإلياذة، هوميروس، الإغريق المنهزمون، ها هو قبري: لقد دُفِنت تحت كل هذه الأعمال العظيمة. بونابَّرت ليس هو بونابَّرت الحقيقي، هو شخصية أسطورية تكوَّنت من أهواء الشعراء، وأقوال الجنود،

(1) Chateaubriand, *Mémoires d'outre-tombe*, E. et V. Penaud frères Editeurs, Paris, 1849, t. 7, pp. 125-130.

وحكايات الناس. ما نراه اليوم هي ملاحم شارلمان والإسكندر. سيعود هذا البطل الرائع إلى شخصيته الحقيقية، وستختفي الصور الأخرى. ينتمي نابوليون بقوة إلى الهيمنة المطلقة. بعد أن عانينا من استبداد شخصه، علينا الآن أن نعاني من استبداد ذاكرته. لكن استبداد الذاكرة أكثر وقعا من استبداد الشخص... لن تستطيع أية سلطة شرعية تخليص ذهن المرء من طيف الغاصب: الجندي والمواطن، الجمهوري والملكي، الغني والفقير، كلهم يضعون جذع تمثاله وصوره في بيوتهم وقصورهم وأكواخهم. بهذا الشأن يتفق القدامى، منهزمون ومنتصرون... بونابَّرت ليس عظيما البتَّة بأقواله وخطاباته وكتاباته، ولا بحبه للحريات التي لم يفلح فيها أبدا... بونابَّرت عظيمٌ لأنه أحدث حكومةً نظامية وقوية، ومدوَّنةً من القوانين تبنَّتها دول عديدة، ومحاكمَ، ومدارسَ، وإدارةً قويةً وحيويةً وذكيةً، والتي ما زلنا نعيش عليها إلى اليوم... عظيمٌ لأنه أعاد النظام إلى فرنسا من جديد بعدما غرقت في الفوضى... عظيمٌ لأنه ملأ عشر سنوات بمثل هذه العجائب التي يصعب فهمها اليوم...

النص رقم 7

فيكتور هوغو مادحاً نابوليون[1]

في بداية هذا القرن، شكَّلت فرنسا مشهدا رائعا بالنسبة للأمم. كان وراء ذلك رجلٌ جعلها عظيمةً حتى أنها ملأت أوروبا. رجلٌ خرج من الظل، وهو ابن سيِّدٍ كورسيكي فقير، رجلٌ تربى في نظامين جمهوريين، عبر عائلته المشبعة بالتقاليد الجمهورية الإيطالية، وعبر قناعاته الشخصية ذات الصلة بالجمهورية الفرنسية، هذا الرجل وصل في غضون سنوات قليلة إلى قمة السلطة بصورة لم يسبق للتاريخ أن تفاجأ بها. كان قد أصبح أميرا بعبقريته، وبمساره، وبأعماله. كل شيء لديه كان يؤشِّر على استحواذه المشروع لسلطةٍ كأنها عناية إلهية. لقد امتلك ثلاثة شروط عليا: الحدث والترحيب والتتويج. رجلٌ رعته الثورة واختاره الشعب وكلَّله البابا... كانت شهرته العسكرية عظيمةً، وحملاته جبارةً. كل سنة، كان يدفع بحدود إمبراطوريته إلى ما وراء الحدود المهيبة والضرورية التي وهبها الله لفرنسا. محا جبال الألب مثل شارلمان، وجبال البرانس

(1) Victor Hugo, *Discours de réception à l'académie française* (1841), Librairie de l'Edition Nationale, E. Testard, Paris, 1894, p. 7 et s.

مثل لويس الرابع عشر، وعبَرَ نهر الراين مثل القيصر، وكاد أن يجتاز بحر المانش مثل النورماندي ويليام الفاتح...

القارة بأكملها انحنت له إلا ستة شعراء... جون فرانسوا دوسيس، وجاك دُوليل، ومدام دوستايل، وبنجامين كونستانت، وشاطوبريان، ولوميرسييه. ماذا تعني هذه المقاومة؟ وماذا تمثل هذه العقول التي تمردت في وجه عبقرية نابوليون، والتي أغاضها المجد وأغضبها البطل، وسط فرنسا التي شهدت النصر، والقوة، والسلطة، والإمبراطورية، والهيمنة، والعظمة، ووسط أوروبا وهي منبهرة ومهزومة، والتي، وقد صارت فرنسية تقريبا، شاركت هي نفسها في إشعاع فرنسا؟ لقد مثَّل هؤلاء الشعراء في أوروبا الشيء الوحيد الذي افتقرت إليه القارة، الاستقلال، والشيء الوحيد الذي افتقدته فرنسا، الحرية...

ومع ذلك، دعونا نكرر القول، هذه المقاومة لم تكن شرعية فقط. لقد كانت مجيدةً.

كانت هذه المقاومة قد أحزنت الإمبراطور. الرجل الذي، كما قال فيما بعد بسانْت هِيلانة، كان بإمكانه أن يجعل من باسكال سيناتوراً، ومن كورناي وزيراً. هذا الرجل امتلك الكثير من العظمة حتى لا يفهم عظمة الآخرين. ربما، كان من شأن شخص عامِّي، ذي سلطة مطلقة، أن يحتقر تمرد الموهبة هذا. لقد انشغل نابوليون بهذا الأمر. كان يعلم جيدا تاريخيته، ولذلك كان يهتم بالتاريخ.

كان لديه إحساس كبير بالشعر، ولذلك كان يعتني بالشعراء. ينبغي الاعتراف بذلك علناً. كان نابوليون أميرا، وهو الذي كان في الأصل جنديا من درجة ملازم ثانٍ في المدفعية، ففاز على الجمهورية الفرنسية الفتية في انقلاب 18 برومير (9 نونبر 1799)، وانتصر على المونارشيات الأوروبية العريقة في معركة أوستيرليز. لقد كان منتصرا، ومثل كل منتصر كان صديقا للآداب. كانت لديه كل الأذواق، وكل غرائز العرش، بشكل مغاير عن لويس الرابع عشر، من دون شك، لكن بنفس هالته. كان هنالك مَلِكٌ عظيم في قلب إمبراطور عظيم. ولذلك، كان الارتباط بالأدب أحد طموحاته الأولى. لم يكن يكفيه لجم المشاعر الشعبية، بل كان يود إخضاع بنجامين كونستانت، ولم يكن يكفيه الفوز على ثلاثين جيشا، بل كان يود النصر على لوميرسييه، لم يكن يكفيه غزو عشر ممالك، بل كان يود قهر شاطوبريان...

ومع ذلك، لم تنطفئ كل مشاعر التعاطف إزاء بونابَّرت في هذا القلب الصامت والصارم (قلب لوميرسييه). في آخر أيام هذا الشاعر، أضرم العمر الشرارة بدلاً من إخمادها. في السنة الماضية، وفي نفس الفصل تقريبا، في صباح جميل من شهر مايو، انتشرت شائعة في باريس تقول بأن إنجلترا، التي خجلت في نهاية المطاف مما فعلته في سانْت هِيلانة، ستعيد إلى فرنسا رفات نابوليون. نهض لوميرسييه، وقد كان مريضا منذ شهر تقريبا، وأحضر الصحيفة.

كانت الصحيفة، فعلا، قد أعلنت بأن فرقاطة ستبحر إلى سانْت هِيلانة. وقف الشاعر العجوز، شاحباً ومرتجفاً، وقد لمعت دمعة في عينه، وفي اللحظة التي تُلِيت عليه هذه العبارة: «سيذهب الجنرال بيرتراند لحمل سيده الإمبراطور»، ردَّ صائحا: «وأنا، ماذا لو بحثت عن صديقي القنصل الأول!». وبعد ثمانية أيام رحل الشاعر. واحسرتاه! قالت لي أرملته المحترمة، وهي تحكي لي هذه التفاصيل المؤلمة: «لم يبحث في الموضوع، بل صنع أكثر من ذلك. التحقَ به»...

النص رقم 8
نابوليون بونابَّرت وجورج واشنطن(1)

وحدها مدوَّنتي، ببساطتها، كانت لها من المنفعة في فرنسا ما فاق مجموع القوانين التي سبقتها. ومدارسي وبرنامجي التعليمي العمومي كوَّنت أجيالا غير مسبوقة. كذلك، في عهدي تراجعت نسبة الجرائم بسرعة، بينما لدى جيراننا في إنجلترا تزايدت هذه النسبة على نحو رهيب. هذا يكفي لمعرفة الفرق الكبير بين إدارة البلدين! وانظروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية كيف هي الأحوال مزدهرة من دون جهد يذكر، وكيف هي أحوال الناس، سعيدة وهانئة. في واقع الأمر، الإرادة والمصالح العامة هي التي تحكم هذه البلاد. اجعلوا نفس الحكومة وهي في حالة حرب مع هذه الإرادة ومصالح الناس، وسترون فورا مدى الضجيج والتجاذب والقلاقل والالتباس، ومدى الجرائم بالخصوص. لما وصلتُ إلى سدة الحكم، رغب الناس في أن أكون مثل جورج واشنطن. الكلمات لا تساوي شيئا، وبكل تأكيد، الذين تفوَّهوا بها لا عِلم لهم بسياقات الأزمنة

(1) Emmanuel De Las Cases, *Mémorial de Sainte-Hélène* (1823), Ernest Bourdin Editeur, Paris, 1842, pp. 210-211.

والأمكنة والرجال والأشياء. لو كنتُ في أمريكا، لكنت أنا هو واشنطن، لكن بقليل من المزايا، لأن المنطق يقضي بأن تكون الأمور على النحو المعروف. أما لو وَجَد واشنطن نفسه في فرنسا وهي في حالةٍ من التفكك الداخلي وتحت تهديد خارجي، فأتحدَّاه أن يكون مثل ما كان عليه، ولو أراد أن يكون غير ذلك لكان نكِرةً، ولَعَمِل على إدامة المآسي العظمى. بالنسبة لي، كنتُ سأكون رجلا متوَّجا مثله. وهذا التتويج لا يكون إلا في مجمَّع الملوك الواثقين والمتمكِّنين. هنا فقط، يمكنني أن أتكلم فعلا عن اعتداله ونكرانه للذات وحكمته. بمنطق الأشياء، لم يكن بإمكاني بلوغ هذا التتويج إلا من خلال الاستبداد الكوني. لقد طمحتُ إلى ذلك، فهل الأمر جريمة؟ وهل يظن المرء أن الاستسلام كان أقل من القدرة البشرية؟ كان لوسيوس كورنيليوس سولا قد ملأ الدنيا بالجرائم، ومع ذلك كانت له الجرأة للتنازل عن الحكم بفعل كراهية الناس. أي دافع كان من شأنه أن يوقفني، أنا الذي لم أنل سوى البركات! لكن أن أُسأل قبل الأوان عمّا كان عليه الموسم فهذا غباء بذيء، أن أقول ذلك وأن أَعِد به فلن يكون إلا لغوا ودجلا. لستُ من هذا الصنف... وأكرر القول، كان عليَّ أن أفوز في موسكو!

النص رقم 9
نابوليون والمؤرخ[1]

مهما يكن من أمر، لن يستطيع أحد حذفي أو بتري... سيكون من الصعب محو أثري نهائيا... سيكون المؤرخ الفرنسي مجبرا للحديث عن إمبراطوريتي. إذا كان نزيها سيمنحني المكانة التي أستحق، وعملية مثل هذه ليست بالعسيرة، لأن الوقائع تتكلم وتسطع سطوع الشمس. لقد تغلبتُ على الفوضى... وأنقذتُ الثورة وأعدتُ الاعتبار للشعب... وألهبتُ حماس كل أشكال التنافس، وكافأتُ كل من استحق المكافأة، ودفعتُ بحدود المجد إلى أبعد مدى! كل هذا يستحق الذكر! .. فعلى أي أساس سيهاجمونني، وكيف للمؤرخ ألاّ يدافع عني؟.. قد يعاتبني على استبدادي، لكن ألم يكن هذا الاستبداد ضروريا؟ وقد يآخذني على تضييقي للحرية، لكنه سيقدم الدليل على أن الحرية المفرطة والفوضى والفتن كانت أيضا على الأبواب. وقد يتهمني بشغفي للحرب؟ لكنه سيبيِّن أنني كنت دائما محط هجوم. وبأنني كنت أرغب في نظام حكم كوني.

(1) Emmanuel De Las Cases, *Mémorial de Sainte-Hélène* (1823), Ernest Bourdin Editeur, Paris, 1842, p. 554.

ومع ذلك، سيفهم بأن الأمر مجرد نتيجة لظروف عرضية، كون أن أعداءنا أنفسهم هم الذين دفعوني شيئا فشيئا إلى ذلك. وأخيرا ماذا عن طموحي؟ آه! من دون شك، سيجد هنا ما يقوله، وباستفاضة، لكن بعظَمَةٍ ورُقي غير مسبوقين! لقد تجلى هذا الطموح في تثبيت وتكريس إمبراطورية العقل والممارسة الكاملة والاستمتاع التام بكل القدرات الإنسانية! وهنا، قد يجد المؤرخ نفسه مضطرا ليأسف على هذا الطموح الذي لم يكتمل ولم يكن مُرضيا!... باختصار هذا هو تاريخي..

النص العاشر والأخير
نابوليون العاشق: رسالة إلى زوجته جوزيفين[1]
ميلانو (18 مايو 1796)

لا أدري لماذا أشعر بالفرح منذ هذا الصباح. لدي إحساس بأنكِ شدَدْتِ الرحال إلى ميلانو. هذه الفكرة تغمرني بهجةً. بطبيعة الحال ستعبُرين منطقة البيمونتيه، لأن الطريق من هناك جيِّد وقصير جدا. ستحلِّين بمدينة ميلانو حيث ستشعرين بالغبطة والسرور. هذا البلد رائع جدا. أما أنا فسأكون في غاية السعادة، لدرجة الجنون. أتحرَّقُ شوقا لأرى هيئتك وأنتِ حامل. هذا من شأنه أن يضفي عليكِ جلالا ووقارا، وهذا يبدو لي ممتع للغاية. احذري المرض، إياك ثم إياك عزيزتي، ستَصِلِين وستكونين في أطيب الأحوال. ستضعين حملك هنا وسيكون طفلا جميلا مثل أمه، وسيحبك كما يحبك أبوه، ولما تصبحين عجوزا وتبلغين المائة سنة سيكون سندا لك ومصدر سعادتك. لكن في انتظار ذلك، إياك أن تحبِّيه أكثر مني، فأنا بدأت أشعر بالغيرة منذ الآن. إلى اللقاء، حُبِّي الجميل،

(1) Napoléon, *Lettres ardentes à Joséphine* (1796-1797), Editions Beer, Paris, 1935, pp. 25-26.

كتب نابوليون هذه الرسالة لزوجته جوزيفين، وقد أخذ علما عبر المراسلة أنها حامل. وكان نابوليون قد انطلق في حملته إلى إيطاليا يومين فقط بعد زواجه منها.

إلى اللقاء، حبيبتي، لا تتأخري، هنا في إيطاليا تنتظركِ موسيقى عذبة ومناظر خلابة. لا تنقص إيطاليا سوى نظرتك. ستزيدينها بهاءً في أعيني. كيفما كان الحال، كما تعرفين، عندما تكونين في مكان ما، يا حبيبتي جوزيفين، فأنا لا أرى سواك.

مراجع

باللغة العربية:

- 2020: **تاريخ العالم في القرن التاسع عشر**، تأليف جماعي تحت إشراف بيار سينغارافيلو وسيلفان فينير، ترجمة جماعية (تنسيق ومراجعة محمد حبيدة، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإنسانية، الدار البيضاء.
- 2018: حبيدة (محمد)، **المدارس التاريخية، برلين، السوربون، استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج**، دار الأمان، الرباط.
- 2017: حمان (عبد الحفيظ)، **المغرب وفرنسا زمن نابليون بونابرت 1798-1815 قضايا ونصوص**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان.
- 2014: طحطح (خالد)، **عودة الحدث التاريخي**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
- 2011: سوليه (روبير)، **علماء بونابرت في مصر**، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 2010: حبيدة (محمد)، **تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

- 1998: كريستوفر (هيرولد)، **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 1981: الحُويِّك (إلياس طنوس)، **تاريخ نابليون الأول**، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- 1978: سعيد (إدوارد)، **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
- 1867: تولستوي (ليو)، **الحرب والسلم**، ترجمة فارس غصوب، دار الفارابي، بيروت، 2016.
- 1822: الجبرتي (عبد الرحمن)، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج 3، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1998.

باللغات الأوروبية:

- 2021 : Tulard (Jean), *Napoléon*, Fayard, Paris (Edition du Bicentenaire)
- 2021 : Lentz (Thierry), *Pour Napoléon*, Perrin, Paris.
- 2021 : Branda (Pierre), *Napoléon à Sainte-Hélène*, Perrin, Paris.
- 2021 : Branda (Pierre), *La saga des Bonaparte,* Perrin, Paris.
- 2018 : Fauquier (Michel), *Histoire de l’Europe. Aux sources de notre monde*, Editions du Rocher, Monaco.
- 2017 : Singaravélou (Pierre) et Venayre (Silvain), (dir.), *Histoire du monde au 19e siècle*, Fayard, Paris.

- 2017 : Boucheron (Patrick), (dir.), *Histoire mondiale de la France*, Seuil, Paris.
- 2015 : Soutou (Georges-Henri), *L'Europe de 1815 à nos jours*, PUF, Paris.
- 2013 : Lentz (Thierry), *Le Congrès de Vienne. Une refondation de l'Europe (1814-1815)*, Perrin, Paris.
- 2013 : Drévillon (Hervé) et autres collaborateurs, *Guerres et armées napoléoniennes. Nouveaux regards*, Nouveau Monde Editions, Paris.
- 2012 : Rey (Marie Pierre), *L'Effroyable Tragédie : Une nouvelle histoire de la campagne de Russie,* Flammarion, Paris.
- 2011 : Dosse (François), *Le Pari biographique. Ecrire une vie*, La Découverte, Paris.
- 2010 : Dosse (François), *Renaissance de l'évènement*, PUF, Paris.
- 2010 : Bell (David A.), *The First Total War : Napoleon's Europe and the birth of warfare as we know it*, traduction française par Christophe Jacquet: *La première guerre totale : l'Europe de Napoléon et la naissance de la guerre moderne,* Editions Champ Vallon, Ceyzérieu (2014).
- 2010 : Burns (William E.), *Brief History of Great Britain*, Checkmark Books, New York.
- 2010 : Delacroix (Christian) et autres collaborateurs, *Historiographies: Concepts et débats*, 2 vol., Gallimard, Paris.
- 2010 : Hazareesingh (Sudhir) et Nabulsi (Karma), « Entre Robespierre et Napoléon », *Annales. Histoire, Sciences sociales*, 2010/5, pp. 1225-1247.
- 2007 : Bayly (Christopher), *La naissance du monde moderne, 1780-1914,* traduction française de M. Cordillot, Editions de l'Atelier, Paris.

- 2007 : Bell (David), *The First Total War, Napoleon's Europe and the Birth of Warfare*, Houghton Miflin Company, Boston/New York.
- 2006 : Sassoon (Donald), *The Culture of the Europeans from 1800 to the Present*, Harper Collins, New York.
- 2006 : Adkins (Roy), Trafalgar : *The Battle that Changed the World*, Penguin Boooks, London.
- 2006: Largeaud (Jean-Marc), *Napoléon et Waterloo. La défaite glorieuse de 1815 à nos jours*, La Boutique de l'histoire, Paris.
- 2006 : Roberts (Andrew), *Waterloo. 18 juin 1815. Le dernier pari de Napoléon*, traduction française de Jean Bourdier, Fallois, Paris.
- 2004 : Hazareesingh (Sudhir), *The legend of Napoleon*, Granta Books, London.
- 2004 : Kerautret (Michel), « Les Allemagnes Napoléonniennes », *Revue du Souvenir Napoléonien*, novembre 2004.
- 2004 : Bicentenaire du code civil (1804-2004), *Le code civil et l'Europe, influence et modernité*, colloque, Strasbourg (21-22 octobre).
- 2002 : Leclair (Jean), « Le code civil des Français de 1804: une transaction entre révolution et réaction », *Revue Juridique Thémis*.
- 2000 : Korner (Axel), (dir), *1848, a European revolution. International Memories of 1848*, St. Martin's Press, London.
- 1999: Crouzet (François), *L'économie britannique et le blocus continental (1806-1813)*, Economia, Paris.
- 1998: Laissus (Yves), *L'Egypte : une aventure savante, 1798-1801*, Fayard, Paris.

- 1998 : Kauffmann (Jean Paul), *La chambre noire de Longwood*, Gallimard, Paris (Roman).
- 1996 : Girault (René) et Borne (Dominique), *Peuples et Nations d'Europe au 19e siècle*, Hachette, Paris.
- 1996 : Revel (Jacques), dir., *Jeux d'échelles. La micro-analyse à l'expérience*, Seuil-Gallimard, Paris.
- 1995 : Lepetit (Bernard), «L'histoire prend-elle les acteurs au sérieux?», *Espaces Temps*, n° 59-60-61.
- 1995 : Broussard (Nicolas), «Napoléon, héro hégélien», *Revue du Souvenir Napoléonien*, n° 400, mars-avril.
- 1995 : Bernstein (Serge) et Milza (Pierre), (dir.,), *Histoire du 19e siècle*, Hatier, Paris.
- 1990 : Delmotte (Eric), *Napoléon*, Marabout, Paris.
- 1990 : Reyne (Max), *Les 26 maréchaux de Napoléon : Soldats de la Révolution, Gloires de l'Empire*, Editions de la Cigale, Grenoble.
- 1987 : *Dictionnaire de Napoléon* (sous la direction de Jean Tulard), Fayard, Paris.
- 1986 : Lapouge (Gilles), *La bataille de Wagram*, Flammarion, Paris (Roman).
- 1978 : Tulard (Jean), *La vie quotidienne des Français sous Napoléon*, Hachette, Paris.
- 1978 : Furet (François), *Penser la Révolution française*, Gallimard, Paris.
- 1976 : Keegan (John), *The Face of Battle : Agincourt, Waterloo and the Somme* (trad. fr. Anatomie de la bataille, Perrin, Paris, 2013).
- 1971 : Kojève (Alexandre), *Introduction à la lecture de Hegel*, Gallimard, Paris.
- 1970 : Sieburg (Heinz-Otto), « Napoléon et la transformation des institutions en Allemagne », *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, t. 17, n° 3.

- 1969 : Palluel (André), *Dictionnaire de l'empereur Napoléon*, Plon, Paris.
- 1964 : Baldet (Marcel), *La vie quotidienne dans les armées de Napoléon*, Hachette, Paris.
- 1955 : Maine (René), *Trafalgar: Le Waterloo naval de Napoléon*, Hachette, Paris.
- 1949 : Madelin (Louis), *La Catastrophe de Russie*, Hachette, Paris.
- 1935 : Napoléon, *Lettres ardentes à Joséphine (1796-1797)*, Editions Beer, Paris.
- 1921 : Faure (Elie), *Napoléon*, nouvelle édition préfacée par Michel Bernard, Tempus/Perrin, Paris (2019)
- 1921 : Levy (Arthur), *Napoléon intime*, Paris, Plon.
- 1891 : Talleyrand, *Mémoires du prince De Talleyrand*, publiés avec une préface et des notes par le duc de Broglie, tome II, Calmann Lévy Editeur, Paris.
- 1855 : Viel-Castel (Louis De), « Sir Houdson et la captivité de Sainte-Hélène », *Revue des Deux Mondes*, vol. 9, n° 2, pp. 292-339.
- 1849 : Chateaubriand, *Mémoires d'outre-tombe*, E. et V. Penaud frères Editeurs, Paris, 12 volumes.
- 1841 : Hugo (Victor), *Discours de réception à l'académie française*, publications de l'Institut royal de France, Paris, 1841.
- 1835 : Laponneraye (Albert), *Mémoires de Charlotte Robespierre sur ses deux frères*, Imprimerie H. Baudouin, Paris.
- 1827 : Scott (Walter), *The Life of Napoleon Buonaparte, Emperor of the French*, Cambridge University Press (2010).

- 1823 : Las Cases (Emmanuel De), *Mémorial de Sainte-Hélène*, Ernest Bourdin Editeur, Paris (édition de 1842).
- 1804 : *Code Civil des Français*, Imprimerie de la République, Paris.

صدر للمؤلِّف

دراســـات

المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ. من المنهج إلى التناهج، الرباط، دار الأمان، 2018.

المغرب النباتي: الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، الدار البيضاء، ملتقى الطرق، 2018 (الطبعة الفرنسية عن نفس الدار: 2008).

بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات، الرباط، دار الأمان، الطبعة الأولى 2015 (الطبعة الثانية، 2016).

كتابة التاريخ: قراءات وتأويلات، الرباط، دار أبي رقراق، 2013.

تاريخ أوروبا: من الفيودالية إلى الأنوار، الطبعة الأولى: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 42، 2010 (الطبعة الثانية: دار أبي راقراق، الرباط، 2016).

ترجمات

حوارات مغربية: مقاربة نقدية للأنثربولوجيا، ترجمة عن الإنجليزية لكتاب كيفن دواير (Kevin Dwyer)، بالاشتراك مع محمد نجمي الروداني، الدار البيضاء، 2008.

المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين (1792-1822)، ترجمة عن الإنجليزية لكتاب محمد المنصور، الدار البيضاء / بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2006 (الطبعة الثانية 2012).

من أجل تاريخ إشكالي: ترجمات مختارة، الطبعة الأولى: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2004 (الطبعة الثانية تحت عنوان **الكتابة التاريخية**: الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2015).

موجز تاريخ سلا: 1000-1800، ترجمة عن الإنجليزية لدراسة كينيث براون (Kenneth Brown) بالاشتراك مع أناس لعلو، الدار البيضاء، منشورات أمل، 2001.

أعمال جماعية

تاريخ العالم في القرن التاسع عشر (ترجمة جماعية: تنسيق ومراجعة)، الدار البيضاء، مؤسسة الملك عبد العزيز، 2020.

الأنثروبولوجيا: من البنيوية إلى التأويلية (تنسيق)، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2014.

تاريخ المغرب: تركيب وتحيين، إشراف محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، السحب الثاني، 2012 (فصل: أزمة النظام التقليدي، 1790-1830، ص 447-458).

محمد حبيدة

أستاذ التاريخ الأوروبي بجامعة ابن طفيل (القنيطرة/ المغرب)
من مؤلفاته ذات الصلة بتاريخ أوروبا والعالم:

- تاريخ العالم في القرن التاسع عشر (ترجمة: تنسيق ومراجعة) 2020
- المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ (2018)
- الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية (2015)
- تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار (2010)

* * * * *

نابوليون: «سيكون المؤرخ الفرنسي مجبرا للحديث عن إمبراطوريتي. إذا كان نزيها سيمنحني المكانة التي أستحق... لأن الوقائع تتكلم وتسطع سطوع الشمس. لقد تغلبتُ على الفوضى... وأنقذتُ الثورة وأعدتُ الاعتبار للشعب... ودفعتُ بحدود المجد إلى أبعد مدى ! كل هذا يستحق الذكر ! كيف للمؤرخ ألاّ يدافع عني؟.. قد يعاتبني على استبدادي، لكن ألم يكن هذا الاستبداد ضروريا؟ وقد يآخذني على تضييقي للحرية... لكنه سيقدِّم الدليل على أن الحرية المفرطة والفوضى والفتن كانت على الأبواب. وقد يتهمني بشغفي للحرب؟ لكنه سيبيِّن أنني كنت دائما محط هجوم... باختصار هذا هو تاريخي..»

مذكرات سانْت هِيلانة (1823)

ISBN 978-9-920-34104-2

50 درهما